ابنُ عبدِ ربِّه الأندَلُسي في المِيزانِ

أ. د. عبد الرحمن مطلك الجبوري
كلية التربية - ابن رشد
قسم اللغة العربية

الملخص

صفحات قليلة هذي التي حاولتُ فيها كشفَ النقابِ عن جوانبَ من حياةِ شاعرِ الأندلس وأديبها، ابن عبد ربه، لا أقولُ: إنني جئتُ بجديد، ولكنَّ الذي أُأكدُهُ هو أنَّ هذا الأديبَ الأندلُسيَّ لم يحظَ بما يستحقُّ من دراسةٍ إلى الآن، وكلُّ الدراسات التي عُقدت حولهُ لم تتعمَّق في حياتهِ العمق المطلوب بما في ذلكَ دراسة جبرائيل سليمان جبور التي كان ينقصُها كثيرٌ منَ المصادر القديمةِ التي لم تكن منشورة آنذاك. وكذلك دراسة إفرام البستاني.

وقد بدا لي بوضوح أنَّ حياةَ هذا الشاعر الأديب كانت على وتيرةٍ واحدةٍ مدَّةً تزيدُ على سبعين عامًا، أي حتى سنة ٣٢٢هـ، ثُمَّ تغيَّرَ اتجاهُها وحُوِّلَ مسارُها.

كما تبين أنَّهُ شاعرٌ مُكثرٌ ومدَّاحٌ بارع ذا نفسٍ طويلٍ، ومجدِّد مبتكر لكثير منَ الصُّور والمعاني، ولم يكن طبعُهُ مُهيَّئًا للهجاءِ، كما ادَّعى بعضُ الباحثين، بل لم يكن هجاءً البتَّةَ، ويكادُ يكونُ غرضُ الهجاءِ لا وجُود لهُ في شعرِهِ.

Ibn Abid Rabah, the Edenlost poet:
Critical Appreciation
By

Prof.Dr Abid Ruhman Mudlak Al-Jubouri
College of Education (Ibn Rushd)
Department of Arabic Language

Abstract

I wrote few pages to shed light on particular aspects about the Edenelost poet Ibn Abid Rabah. I do not proclaim that I have discovered a new thing. But what I want to emphasize is that this Edenlost literary man has not been explored in the manner he deserves so for, for all the studies made about him do not go that deep about his life as it ought to be. For instance, Jibrael Suleiman' s study about this poet lacks in many references which are supposed to be taken from old reference books which were not published in his time, besides the study made by I from Al-Bistani.

For my part, it has been made clear that the life of this poet and literary man had been referred to as showing the fame aspects for more than seventy years i.e., till ٣٢٢ AH. Then the study of the life of this poet took another direction.

It has been made clear that the poet appears to be prolific and is a skilful praiser who has written long poems, and he is on innovator who renews a lot of implications and poetic images. His poetry does not by nature show any satirical reference as some researchers may proclaim – He has never been a satirist at all in all his poetic achievements.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على خيرِ خلقِ الله، سيدنا محمد وعلى آلهِ وصحبِهِ ومن والاه.

أما بعدُ؛

فصلتي بابن عبد ربهِ تمتدُّ إلى أيامِ الدراسة الثانوية، قبل ما يقربُ من أربعين عامًا، فقد سمعتُ آنذاك مقطوعتَهُ التي أوَّلُها[1]:

ألا إنَّما الدّنيا غضارةُ أيكةٍ إذا اخضرَّ منها جانبٌ جَفَّ جانِبُ

فأثلجَ صدري، وعلى غير قاعدةٍ صار ابن عبد ربهِ مِنَ الشُّعراءِ المفضَّلينَ لديَّ.

وقد أردتُ هذا العامَ أن أُريحَ قلمي مِنَ البحثِ في دقائقِ النَّحوِ العميقة، ومسائلهِ الشّائكة، وأُطلِقَ لهُ العنان في أفياءِ الأدبِ وأهلهِ، فكان اختياري «ابن عبد ربه الأندلُسي ».

وبعد جمعي مادَّتَهُ ارتأيتُ تقسيمَها على مبحثينِ وخاتمة. خصصتُ المبحث الأوَّل لحياتِهِ، تناولتُ فيهِ سيرَتَهُ وشُيُوخَهُ وثقافتَهُ وصلَتَهُ بخُلفاءِ عصرِهِ وأعيانِ زمانهِ، ثمَّ مرضهُ وموتَهُ. وعقدتُ المبحث الثاني لشِعرِهِ وشاعريتِهِ وديوانِهِ والسِّماتِ الفنية وأغراضهِ الشِّعريَّة. وأوجزتُ في الخاتمة أهمَّ النتائج التي توصَّلتُ إليها فيه.

ومِنَ اللهِ تعالى أ ستمدُّ العَونَ والسَّدادَ في القَولِ والعملِ.

المبحثُ الأوَّلُ: حياتُــهُ

أبو عُمَرَ[٢] أحمد بن محمد بن عبد ربهِ بن حبيب بن حُدَيْر[٣] بن سالم القُرطبي، مولى هشام بن عبدالرحمنِ بن معاوية بن هشام بن عبدالملك بن الحكم الأموي[٤].

تتفقُ المصادرُ على أنَّهُ وُلِدَ سنةَ ستٍّ وأربعينَ ومِئتين للهجرةِ، في العاشر من رمضان من تلك السَّنة[٥].

يُمكِنُ تقسيمُ حياةِ ابنِ عبد ربهِ على مرحلتين متميِّزَتَينِ:

إحداهُما: مرحلة اللهوِ والتَّرفِ

إذ يبدو، ومن أبياتٍ ليست قليلةً، أنهُ كان في فاتحةِ حياتهِ يأخُذُ بحظٍّ مِنَ اللهْوِ، شأنُهُ في ذلكَ شأنُ غيرِهِ مِنَ الشُّبَّانِ الذينَ أغوتهُمُ الحياةُ ببهرَجِها بادئَ ذي بَدْءٍ، وفي شعرهِ كثيرٌ مِنَ الأبياتِ التي يصفُ بها الخمرةَ وكؤوسَها وسُقاتَها وصفَ الشَّاربِ المنادم، كقولِهِ[٦]:

رَاحٌ إذا اقْتَرَنَتْ عَلَيْكَ كُؤُوسُها   خِلْتَ النُّجُومَ تَقَارَنَتْ بِنُجُومِ
تَجري بِأكنَافِ الرِّياضِ، وما لَهَا   فَلَكٌ سِوى كَفِّي وَكَفِّ نَدِيْمِي

وقولِه[٧]:

وقَضيبٍ يَميسُ فوقَ كثيبٍ   طيِّبِ المُجتنى لذيذِ العناقِ
قَدْ تغنَّى كما استَهلَّ يُغنِّي   ساقُ حُرٍّ مُغرِّدٍ فوقَ ساقِ[٨]
ينثُرُ الدُّرَّ في المَسامِعِ نثرًا   بينَ دُرٍّ مُنظَّمٍ مُسْتاقِ
وافتَضَضْنَا مِنَ العَواتِقِ بِكْرًا   نُكِحَتْ أُمُّهَا بِغَيْرِ صَدَاقِ
ثُمَّ بانَتْ، وَلَم تُطَلَّقْ ثَلاثًا   لَمْ تَبِنْ حُرَّةٌ بِغَيْرِ طَلاقِ
دِيْنُنَا فِي السَّماعِ دِيْنٌ مَدِيْـ   نِيٌّ، وفي شُرْبِنَا الشَّرابَ عراقِي

فهوَ يُبيحُ سماعَ الغِناء، محاولاً إيجادَ مُسوِّغٍ لذلكَ، كما يُبيحُ شُربَ النَّبيذِ أيضًا، وهذا دليلٌ على لهوِهِ وتحرُّرِه، فضلاً عن أنهُ دليلٌ على شُربِهِ الخمرَ وسُكرِهِ. ومِمَّا يدلُّ على ذلكَ أيضًا، قَولُهُ[٩]:

بِذِمامِ الهَوى أَمُتُّ إِلَيْـهِ   وبِحُكْمِ العُقَارِ أَقْضِي عَلَيْهِ
بأبي مَن زها عَلَيَّ بِوَجْهٍ   كادَ يُدْمَى لَمَّا نَظرتُ إليهِ
كُلَّما علَّني مِنَ الرَّاحِ صِرْفًا   عَلَّنِي بالرِّضابِ مِن شَفَتَيْهِ
ناولَ الكأسَ واستمالَ بِلَحظٍ   فَسَقَتْني عَيْناهُ قبلَ يَدَيْهِ

وتنقُلُ كُتُبُ التَّراجِمِ والأدبِ أخبارًا تكشفُ لنا هذا الجانب أو هذهِ المرحلة من حياةِ ابن عبدِ ربهِ، فابنُ دُحيَّة في كتابهِ (المُطرِب)[١٠] ينقلُ عن كتاب (الاحتفال في تاريخ أعلامِ الرِّجال) قِصَّةً جرت لابنِ

عبد ربهِ معَ الكاتب أبي حفصٍ (عمر بن قِلْهيل) في التَّسمُّعِ على جارِيَتِهِ (مصابيح)، «واتفقَ أن اجتازَ أحمد ابن عبد ربهِ بدارِ أبي حفص عشيَّةً فقرعَ سمعَهُ من طِيبِ الغِناءِ ما استوقفَهُ، وأرادَ الدُّنُوَّ مِنَ البابِ، وقيلَ: إنهُ صُبَّ عَليهِ مِنَ العِلِّيَّةِ ماءٌ بلَّ ثيابَهُ، فلم يردَعْهُ ذلكَ عن طلَبِ الازديادِ في السماعِ، فعدلَ إلى مسجدٍ بِقُربِ الدَّارِ، وسألَ المُعلِّمَ فيهِ أن يأتِيَهُ بِدواةٍ وبياضٍ يكتُبُ فيهِ، فجاءهُ بِهِما فكتبَ إلى ابنِ قِلْهِيْل رُقْعَةً فيها: بسم الله الرحمن الرحيم، وطاولتْكَ النِّعَمُ وطالتْ بِكَ، أنَّا لمسنا سماءَ لَهْوِكَ، فوجدناها مُلِئت حَرسًا شديدًا وشُهُبًا، وأنا كنَّا نقعُدُ منها مقاعِدَ للسَّمعِ فَمن يستمعِ الآنَ يجِد لهُ شهابًا رَصَدًا، وفي ذلكَ يقُولُ[١١]:

يا مَنْ يَضِنُّ بِصَوتِ الطَّائِرِ الغَرِدِ ما كُنتُ أَحسَبُ هَذا الضَّنَّ فِي أحَدِ
لو أنَّ أسماعَ أهلِ الأرضِ قاطِبةً أصْغَتْ إلى الصَّوتِ لمْ ينقُصْ، ولمْ يَزِدِ
لولا اتِّقائي شِهابًا منكَ يَحْرِقُنِي بنارِهِ، لاسترقْتُ السَّمْعَ مِن بُعُدِ
لو كانَ زِرْيابُ حيًّا ثُمَّ أُسْمِعَهُ لَماتَ مِنْ حَسَدٍ أو ذَابَ مِنْ كَمَدِ
فلا تَضِنَّ على أُذْنِي تقرُّطَهَا صوتًا يَجُولُ مَجالَ الرُّوحِ فِي الجَسَدِ
أَمَّا الشَّرَابُ؛ فَإنِّي لَسْتُ أقرَبُهُ وَلَسْتُ آتِيْكَ، إلا كِسْرَتِي بِيَدِي

وسألَ البوابَ فأوصلَ الرُّقْعَةَ إليهِ، فلمَّا قرأها وعرفَ موضِعَهُ جاءَ حافِيًا إليهِ، وسألهُ الحضُورَ فَفَعَلَ، ثُمَّ قالَ مُمازِحًا: هاتِ الكِسرَةَ التي زَعَمتَ أنَّكَ ترفعُ عنَّا مؤونتَها! فقال: أنصَرِفُ فآتِيكَ بِها، فأقامَ أحمدُ عندَهُ أيَّامًا»[١٢].

وغير هذا من الشواهِد التي تدلُّ على أنَّ ابنَ عبدِ ربِّهِ كانَ «في شبابهِ ماجِنًا لاهِيًا شاربًا غَزِلاً»[١٣] تبدو عليهِ الظَّرافةُ واستهواءُ الطَّرب، وهذا ما دفعَهُ إلى طرقِ بابِ اللهوِ وتجرُّئِهِ للحطِّ من بعضِ التعاليمِ الدِّينيَّةِ بِحُجَّةِ الغلوِّ والإفراطِ فيهِ، كما حاولَ أن يُوفِّقَ بينَ اللهْوِ والدِّينِ مجانِبًا الصَّوابَ وقولَ الحقِّ، وما تشبيهُهُ سماءَ لهْوِ (أبي حفص) بسماءِ اللهِ، واستشهاده بالآيةِ القرآنية في معرضِ حديثهِ عنِ اللهو بهذهِ الجَرْأةِ وتبجّحه بذلكَ إلا دليلٌ على عدمِ اكتراثِهِ بِحُرمةِ القُرآنِ الكريمِ.

ولا يُمكِنُ أن تعُدَّ قولَهُ: (أمَّا الشَّرابُ فإني لستُ أقرَبُهُ) شاهِدًا «على تقواهُ وأن ليسَ لهُ أربٌ في غيرِ الطَّربِ من دون ارتكابِ مُحرَّمٍ» كما يقُول الأستاذ محمد كرد علي[١٤]، وإنَّما هو تعريضٌ بأبي حفص وكنايةٌ عن بُخلِهِ، أرادَ أن يُعْلِمَهُ بأنَّهُ لا يشربُ الخمرَ إذا حضرَ مجلِسَهُ فلا يستثقلُ حضُورَهُ بدليلِ قولِهِ: (ولسْتُ آتيكَ إلا كِسْرتي بيدِي).

ووصفُ الخمْر، في ما بينَ أيدينا من ديوانِهِ المجموع، يُعدُّ غايةً في الدِّقَّةِ[١٥]، وقد اعترفَ هو نفسُهُ بذنبِهِ وتقصيرِهِ في جنبِ الله، ومجاهرتِه بالعِصْيانِ وتورّطه في اللذاتِ بقولِهِ[١٦]:

أُبارِزُ اللهَ بِعِصْيانِــهِ وليسَ لي مِنْ دُونِهِ رَاحِمُ
يا رَبِّ غُفْرَانَكَ عَنْ مُذْنِبٍ أسرَفَ إلا أنَّـهُ نادِمُ

والأُخرى: مرحلةُ العبادةِ والزُّهدِ:

وهيَ، على ما يبدو، مرحلةٌ قصيرةٌ في حياتِهِ، إذ تيقظت فِطرتُه بعدَ أن خبرَ الدُّنيا بطولِ عُمُرِه وأحسَّ بالشَّيخوخةِ وأحزانِها، فرجا أن يمحوَ ما قد سلف منهُ في القول والعمل، وصارت الدُّنيا عندهُ كأحلامِ نائم؛ لأنها زائلة والموتُ آتٍ لا محالة:

ألا إنَّما الدُّنيا كأحلامِ نائمٍ وما خيرُ عيشٍ لا يَكُونُ بِدَائِمِ

تأمَّلْ إذا ما نِلْتَ بالأمسِ لَذَّةً فأفنَيْتَها، هَلْ أنْتَ إلاَّ كَحَالِمِ

وَما المَوتُ إلاَّ شَاهِدٌ مِثْلُ غائِبٍ وَما النَّاسُ إلاَّ جاهِلٌ مِثْلُ عَالِمِ[١٧]

ولذا استمرَّ بعدَ توبتِهِ يُوجِّهُ النُّصحَ والإرشادَ لكُلِّ لاهٍ عابثٍ لعلَّهُ يرعوي، مقتفيًا بذلكَ أثَرَ أكبر شُعراء الزُّهد في المشرق العربي، كأبي العتاهية ومحمود بن الحسن الوراق وغيرِهما، كقولِهِ ناصحًا اللاهي بين الخمر والدّنان والغناء[١٨]:

أتلهُو بَيْنَ باطِيَةٍ وَزِيْرِ وأنتَ مِنَ الهَلاكِ عَلى شَفيْرِ[١٩]

فيا مَنْ غرَّهُ أملٌ طوِيلٌ يُؤَدِّيْهِ إلى أَجَلٍ قَصِيْرِ

أتفرَحُ والمَنِيَّةُ كُلَّ يَومٍ تُرِيْكَ مكَانَ قَبْرِكَ فِي القُبُورِ

هِيَ الدُّنْيا، فَإِنْ سرَّتْكَ يَومًا فإنَّ الحُزْنَ عاقِبَةُ الغُرُورِ

سَتُسْلبُ كُلَّ مَا جَمَّعْتَ مِنْهَا كَعارِيةٍ تُرَدُّ إلى المُعِيْرِ

وهوَ في هذهِ الأبياتِ ينظُرُ، كما أسلفت، إلى قولِ الوراق[٢٠]:

فَما أهلُ الحياةِ لنَا بأهْلٍ ولا دارُ الحَياةِ لنَا بِدَارِ

وما أولادُنا والأهلُ فيها ولا أموالُنا إلاَّ عَوارِ

وأنْفُسُنَا إلى أجَلٍ قَرِيْبٍ سيأخُذُها المُعِيرُ إلى المُعَارِ

وقد دفعَ النَّدمُ ابنَ عبد ربهِ إلى العَودةِ لِما قالَ مِن شعرٍ في الغَزَلِ والمُجُون، وأخذَ ينقُضُهُ بأشعارٍ يقُولُها في الزُّهدِ والتَّوبةِ والتذكير بالموتِ وذمِّ الدُّنيا، وقد سمَّى هذا النوعَ مِنَ الشِّعرِ ب (المُمَحِّصاتِ) وهي كثيرةٌ جدًا، قال صاحب البغية: «وذلكَ أنهُ نقضَ كُلَّ قطعةٍ قالَها في الصِّبا والغزلِ بقطعةٍ في المواعظِ والزُّهدِ فمحَّصَها بها كالتَّوبةِ منها والنَّدمِ عليها»[٢١]. فمِن ذلكَ قِطْعةٌ محَّصَ أو نقضَ بها قصيدتَهُ التي مطلعُها[٢٢]:

هلاّ ابتكَرْتَ لِبَيْنٍ أنتَ مُبْتَكِرُ هَيْهَاتَ يأبى عَلَيْكَ اللهُ والقَدَرُ

نقضَها بقولهِ[٢٣]:

يا عاجِزًا ليسَ يَعْفُو حينَ يَقْتَدِرُ ولا يُقَضَّى لَهُ مِن عَيْشِهِ وَطَرُ
عَايِنْ بِقَلْبِكَ إنَّ العَيْنَ غَافِلَةٌ عَنِ الحقيقَةِ، واعلَمْ أنَّها سَقَرُ
سوداءُ تَزْفُرُ مِنْ غَيظٍ إذا سُعِرتْ لِلظَّالِمِيْنَ، فَلا تُبْقِيْ ولا تَذَرُ
إنَّ الَّذِينَ اشترَوا دُنْيا بآخِرةٍ وشَقْوَةً بنَعِيمٍ سَاءَ ما تَجَرُوا
يا مَنْ تَلَهَّى، وشَيْبُ الرَّأْسِ يَنْدُبُهُ مَاذَا الَّذي بَعْدَ شَيْبِ الرَّأسِ تَنْتَظِرُ؟
لو لَمْ يَكُنْ لكَ غَيْرُ المَوتِ مَوعِظَةٌ لكانَ فيهِ عَنِ اللَّذَّاتِ مُزْدَجَرُ
أنتَ المَقُولُ لهُ: مَا قُلْتُ مُبْتَدِئًا «هَلاَّ ابْتَكَرْتَ لِبَيْنٍ أنْتَ مُبْتَكَرُ»

ولمْ يُنصِفْ الدكتور إحسان عبَّاس ابنَ عبدِ ربِّهِ في هذهِ المرحلة مِنْ حياتِهِ بقولِهِ: «ونقرأُ شِعرَهُ في الزُّهْدِ وذمِّ الدُّنْيا فلا نَجِدُ إحساسًا حقيقيًّا بمعنى الخوفِ»(٢٤)، وكأنَّ الاستقامةَ في الحياةِ وطاعة الله تعالى لا تتمُّ إلاَّ بالخَوفِ، وفاتَ الأستاذَ أنّ الرَّجاءَ بالرَّحمةِ يسعُ القلبَ وينزعُ منهُ كُلَّ خوفٍ، ولِمَ يَخَافُ التَّائِبُ؟ ألأنَّهُ رجعَ إلى الله! أم لأنهُ عرفَ الحقَّ؟

إنَّ الخوفَ ينتابُ مَن فرَّطَ في جنبِ اللهِ ولم يعُد في عُمُرِهِ مُتَّسَعٌ للتوبةِ والتكفيرِ عنِ الذَّنْبِ، وحِيالَ هذا فلا أرى لقولِ الأُستاذِ إحسان مُسوِّغًا أو وجهًا مِنَ الصَّوابِ أحمِلُهُ عليهِ.

ومن يقرأ شعرَ ابنِ عبد ربهِ في هذهِ المرحلةِ مِنْ حياتِهِ يجِدُ فيهِ نيَّةً خالِصةً وتوجُّهًا صادِقًا للتوبةِ واللجُوءِ إلى اللهِ سبحانه، طمعًا في المغفِرةِ والرّضوانِ مع إحساسٍ بالتَّقصِيْرِ وإقرارٍ بالذَّنْبِ، استمع لهُ يقولُ(٢٥):

بادِرْ على التَّوبةِ الخَلْصَاءِ مُجْتَهِدًا والموتُ، ويحكَ، لم يَمدُدْ إليكَ يدَا
وارْقُبْ مِنَ اللهِ وَعْدًا ليسَ يُخْلِفُهُ لا بُدَّ للهِ مِن إنجازِ مَا وَعدَا

واستمع لهُ وهو يذكرُ الموتَ واقفًا أمامَ مشاهِدِهِ المُرعبة وقفةَ المؤمنِ العابد، التائب النادم، خاشعًا راجيًا داعيًا طامعًا برضى الله سبحانهُ وتعالى، يقول(٢٦):

مَنْ لي إذا جُدتُ(٢٧) بينَ الأهلِ والولدِ وكانَ منِّيَ نَحْوَ المَوتِ قيدَ يدِ
والدَّمعُ يهملُ والأنفاسُ صَاعِدةٌ فالدَّمعُ في صَبَبٍ والنَّفسُ في صُعُدِ
ذَاكَ القَضَاءُ الَّذي لا شَيْءَ يَصْرِفُهُ، حتَّى يُفرِّقَ بَيْنَ الرُّوحِ والجَسَدِ

غيرَ أنَّ الذي يُثيرُ التَّساؤُلَ فِي هذهِ المرحلة من حياةِ ابنِ عبدِ ربهِ هو أنَّ (المُمَحِّصات) التي تُثبِتُ توبتَهُ وإنابَتَهُ إلى اللهِ لا نجِدُ لَها أثَرًا في كِتابِهِ (العقد الفريد) وهذا لا يدلُّ على عدمِ اهتمامهِ أو اكتراثهِ بِها، بل يؤكِّدُ شيئًا واحِدًا هو أنهُ نظَمَها بعدَ سنةِ ٣٢٢هـ التي أنهى فيها تأليفَ كتابهِ، وربَّما كانَ هذا التاريخُ أو ما بعدهُ بداية توبتِهِ التي رافقت نظمَ المُمَحِّصات، وقد جاوزَ السبعينَ من عُمُرِه، إذ لم يَعِشْ بعد ٣٢٢هـ سوى ستِّ سنوات ثُمَّ وافاهُ الأجل. وعلى هذا فمُدَّةُ توبتِهِ تُعدُّ قصيرةً إذا ما قيست بعُمُرِهِ الذي ناف على الثَّمانين.

ولكنَّ ابنَ عبد ربهِ، قبلَ شيخُوختهِ هذهِ، كانَ يتيقَّظُ بين حينٍ وآخر، فيبكي على شبابهِ اللاهي «وربَّما كانَ شعرُهُ في هذهِ النَّاحيةِ أصدَقَ وأحفلَ بالشُّعُورِ»(٢٨)، ويُفصِحُ هُوَ عن ذلكَ بنفسهِ فيقُول(٢٩):

شبابِي! كيفَ صِرْتَ إلى نفادِ وبُدِّلتَ البياضَ مِنَ السَّوادِ؟

....

كأنِّي منكَ لَمْ أربعْ بِرَبْعٍ ولَم أرتَدْ بِـهِ أحْلَى مَرَادِ
سَقَى ذَاكَ الثَّرى وَبْلُ الثُّرَيَّا وغادى نبتَهُ صوبُ الغَوادي
فكَم لِي مِنْ غَلِيلٍ فِيهِ خَافٍ وكَمْ لِي مِنْ عَويلٍ فِيهِ بادِي
زَمَانٌ كانَ فِيهِ الرُّشْدُ غَيًّا، وكانَ الغَيُّ فِيـهِ مِنَ الرَّشَادِ
يُقَبِّلُنِـي بِدَلٍّ مِـنْ قَبُولٍ، ويُسْعِدُنِي بِوصْلٍ مِنْ سُعَادِ
وأجْنُبُهُ، فيُعْطِينِي قِيادًا، ويَجْنُبُنِي، فأعْطِيـهِ قِيادي

ويقُولُ أيضًا(٣٠):

ولَّى الشَّبابُ، وكُنْتَ تسكُنُ ظِلَّهُ فانْظُرْ لِنَفسِكَ أيَّ ظِلٍّ تَسْكُنُ
ونَهَى المَشِيبُ عَنِ الصِّبَا لو أنَّهُ يُدْلِي بِحُجَّتِهِ إلـى مَنْ يَلْقَنُ(٣١)

شُيُوخُهُ وثقافَتُه:

يُعدُّ ابنُ عبد ربهِ واحدًا مِنَ الأدباءِ الذينَ طلَبُوا العلمَ مُنذُ الصِّغرِ وجدُّوا واجتهَدُوا في طلبهِ حتَّى صارُوا مِن خناذيذِ الأدبِ وجهابذةِ الشِّعْرِ.

نشأ في قرطبة وترعرعَ فيها وطلبَ العلمَ في جامعِها وعلى شيوخِ عصرِه، وسمعَ منهُم. يذكر ابن الفرضي في تاريخهِ أنَّ ابنَ عبد ربهِ «سمِعَ من بقِّي بن مخلّد وابن وضَّاح والخشني»(٣٢)، ويذكرُ ابن العماد أنّهُ سمعَ من بقي بن مخلّد ومحمد بن وضَّاح(٣٣). وهؤلاء الشيوخ الذين درسَ عليهِم ابن عبد ربهِ كان لكُلٍّ منهم باعٌ طويلةٌ، وقدمٌ ثابتة، ورأيٌ حصيفٌ في الفقهِ وسعةِ العلمِ بالحديثِ واللغةِ.

فـ(بقّي بن مخلّد) المتوفى ٢٧٦هـ كانَ ذا علمٍ واسعٍ وفضلٍ كبيرٍ على الأندلس وأهلِها، رحلَ إلى المشرق فلقِيَ جماعةً مِن أئمَّةِ المُحَدِّثِيْنَ، وسمعَ بأفريقيـة من (سحنون) بن سعيد، وعون بن يوسف وغيرِهما، وقد أدخلَ إلى الأندلُس كثيرًا من كُتُبِ المشارقِةِ التي كانَ يُشَارُ إليها بالبنانِ مثل كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي، وفقه الإمام الشَّافعي، ومصنّف ابن أبي شيبة، والطَّبقات لابن الخياط، هذا فضلاً عن تصانيفِهِ الكثيرَةِ في القُرآنِ والحديث(٣٤).

و(محمد بن وضاح) المتوفى ٢٨٧هـ كانَ «عالِمًا بالحديثِ، بصيرًا بطُرُقِهِ، متكلِّمًا على عِلَلِهِ، كثيرَ الحكاية عن العبادةِ، ورِعًا زاهِدًا، فقيرًا متعفِّفًا، صابرًا على الأسماع، محتسبًا في نشرِ العلمِ»(٣٥).

و(الخُشني) لا يقلُّ عن سابِقَيهِ في الأندلسِ مَكَانةً، فقد نقلَ إليها كثيرًا مِن كُتُبِ اللغةِ مِنَ المشرقِ، والتقَى بلُغويِّي المشرق في أثناءِ رحلتـهِ إليهِ، ودخلَ بغدادَ وكتبَ بها كثيرًا مِنَ الكُتُبِ، وأدخلَ إلى الأندلسِ عددًا غيرَ قليلٍ من حديثِ الأئمَّةِ وكثيرًا مِنَ اللغةِ والشِّعْرِ الجاهِلِيِّ روايةً.

ولذا؛ فقد تلَقَّفَ ابنُ عبدِ ربِّهِ عُلُومَ الفقهِ والحديثِ واللغةِ ودواوين الشُّعراءِ والتاريخ والأخبارِ والسِّيَرِ، وحسبُنا شاهِدًا على ما نقولُ كتابه (العقد الفريد) الذي لم يَدَعْ في الأدَبِ، بمعناهُ العام، شيئًا إلا ذكَرَهُ فيهِ أو نَوَّهَ عنهُ، وهذا ما دفعَ ابن دحيَّة إلى القولِ فيهِ: «صاحبُ كتابِ العقد أنجدَ وغارَ وعلا بِذِكْرِهِ

الآفاق والأقطار»(٣٦). وابن كثير إلى القول: «وكتابُهُ العقد يدلُّ على فضائلَ جمَّة وعُلُومٍ كثيرةٍ مُهِمَّة»(٣٧). وقالَ قبلَ ذلكَ فيهِ: «كان مِنَ الفُضَلاءِ المُكْثِرِيْنَ والعُلَماءِ بأخبارِ الأوَّلِينَ والمتأخِّرين»(٣٨).

هذا فضلاً عن شهادةِ كُلٍّ مِن ابن خاقان، والحميدي، والضَّبِّي، وابن خلِّكان، إذ قال الأوَّلُ فيه: «عالمٌ سادَ بالعِلمِ ورأس، واقتبسَ مِنَ الحظوةِ ما اقتبسَ، وشهر بالأندلس، حتى صار إلى المشرق ذكرُهُ، وكانت لهُ عنايةٌ بالعِلمِ وثقةٌ، وروايةٌ لهُ مُتَّسقة، وأمَّا الأدبُ فهو كانَ حجتهُ... ولهُ التأليفُ المشهور الذي سماهُ بالعقد، وحماهُ مِن عثرات النَّقد؛ لأنهُ أبرزَهُ مُثقَّفَ القناةِ، مرهفَ الشباه، تقصُرُ عنهُ ثواقِبُ الألباب، وتبصر السحر منهُ في كُلِّ باب»(٣٩). وقال الحميدي والضَّبِّيُّ: «كان لأبي عمَرَ بالعلمِ جلالةٌ وبالأدبِ رياسةٌ وشُهرة»(٤٠). أما ابنُ خلِّكان؛ فقال: «كانَ مِنَ العُلماءِ المُكثِرينَ مِنَ المحفُوظاتِ والاطلاعِ على أخبارِ النَّاس»(٤١).

ويكفي هذا على ما ذهبْنَا إليهِ وقُلْنا فيهِ دليلاً وبرهانًا.

صِلتُهُ بِخُلفاءِ عصرهِ وأعيانِ زمانِهِ

أولاً: الخلفاء:

وُلِدَ ابنُ عبدِ ربهِ، كما أسلفت، سنة ٢٤٦هـ، وطال بهِ العمر حتى ناف على الثمانين، وعلى طول هذا العمر المديد تربَّعَ على عرش قرطبة كُلٌّ مِن:

محمد بن عبدالرحمن بن الحكم (ت٢٧٣هـ).

المنذر بن محمد بن عبدالرحمن (ت٢٧٥هـ).

عبدالله بن محمد بن عبدالرحمن (ت٣٠٠هـ)

عبدالرحمن بن محمد بن عبدالله بن محمد بن عبدالرحمن بن الحكم بن هشام بن عبدالرحمن الداخل بن معاوية بن هشام بن عبدالملك بن مروان (ت٣٥٠هـ).

ويبدو أنَّ ابنَ عبد ربه كانَ في العقد الثالث من عُمُرِهِ حين تُوُفِّيَ أوَّل هؤلاءِ الأمراء أو الخلفاء الذين عاصرهم، ومع ذلكَ لا نكادُ نجدُ لهُ شعرًا في هذا الأمير، إلا أنَّ ابنَ حيان في كتابهِ (المقتبس) يقول: «وقد مدحَ الأميرَ محمَّدًا أوَّلَ ما مدح مِنَ الخُلفاءِ لأوَّلِ نبُوغِهِ فشِعْرُهُ قليلٌ فيهِ»(٤٢). وهذا يدلُّ على قلَّةِ صِلَتِهِ، بادئ ذي بدء، بأصحابِ الإمارةِ في عصرهِ، في حين نجِدُ لهُ في الأميرِ الثَّاني (المنذر بن محمد) الذي حكم سنتين، قصيدةً قيلَ إنَّها طويلةٌ(٤٣)، نستشفُّ منها تقرُّبَ ابنِ عبد ربهِ مِن ممدوحِهِ، يقُولُ فيها(٤٤):

بالمُنذِرِ بنِ مُحمَّدٍ شرُفتْ بِلادُ الأندلُسْ
فالطَّيْرُ فيها ساكِنٌ والوحشُ فيها قدْ أنِسْ

وذكرَ ابن حيان أن ابنَ عبد ربهِ ثنَّى في مدحِهِ بالمُنذر بن محمد(٤٥)، وهذا ما أوضحناهُ، لكنَّ المُنذرَ لم يطُل بِهِ العُمُر، إذ تُوُفِّيَ بعد سنتين من تولِّيهِ الحُكمَ، وخلفَهُ ابنُهُ عبدالله، وبهِ ثلَّثَ ابنُ عبد

ربِّـهِ مدائحَـهُ «وقـد تفتَّحـتْ أشـعارُهُ وانقـادت لـهُ بـدائعُ معانيـهِ وغرائـب اختراعاتـه فجـاءَ بـالأدبِ فـي صناعتهِ»[٤٦].

ومن مدائح ابن عبد ربهِ في الأميرِ عبدالله، قصيدتُهُ القافِيَّة التي قالها لأوَّلِ جلوسهِ في الخلافة، جاءَ فيها[٤٧]:

خلافةُ عبد الله حجٌّ على الورى   فلا رفثٌ فِي عصرِهِ وفُسُوقُ
حقيقٌ بما نالت يداهُ مِنَ العُلى   وما نالنا منها بِهِ فحقيقُ
تجلَّت دياجي الحِيف عن نُور عدلهِ   كما ذرَّ في جُنحِ الظَّلامِ شُرُوقُ
وثقَّفَ سَهْمَ الدِّينِ بالعَدْلِ والتُّقى   فهذا لهُ نصلٌ، وذاكَ فُوقُ[٤٨]
وأعلقَ أسبابَ الهُدى بضميرِهِ   فليسَ لهُ إلاّ بِهِنَّ عُلُوقُ
وما عاقهُ عنها عوائقُ مُلكِهِ   وأمثالُهُ عن مِثْلِهِنَّ تَعُوقُ
إذا فُتِحَتْ جنَّاتُ عدْنٍ، وأُزْلِفتْ   فأنتَ بها للأنبياءِ رفيقُ

ومن مدائحهِ فيهِ أيضًا، قصيدتهُ الحائية في غزوةِ (حصن بلاي) وفتحهِ، التي مطلعُها[٤٩]:

هُوَ الفتحُ منظومًا على إثْرِهِ الفتحُ   وما فيهما عَهْدٌ ولا فيهما صُلحُ

....

بدولةِ عبدِ اللهِ ذي العزِّ والتُّقَى   يُحبَّرُ في أدْنَى مقاماتِهِ المدْحُ

وقد أثنى ابن عبد ربهِ على هذا الأميرِ بقولهِ: «وكان الأميرُ عبدالله بن محمد من أفاضل خلفاءِ بني أمية بالأندلس، بنى الساباط طريقًا من قصرِهِ إلى المسجد الجامع تمكينًا لمشاهدتهِ صلاةَ الجماعة معَ الناسِ فيهِ، فاستولى لهُ وواظبَ الصَّلاة في المسجدِ بمصلاه إلى جانبِ المنبرِ طولَ مُدَّتِهِ إلى أن أتاهُ أجلُهُ، رحمةُ اللهِ وبركاتُهُ عليهِ»[٥٠].

أما رابعُ خليفةٍ أندلُسيٍّ بالغ ابنُ عبد ربهِ فيهِ القولَ، وبذَّ الفحول، فعلا ذكرُهُ واستطارَ بارقُ شعرِهِ؛ فـ (عبدالرحمن النَّاصر) الذي تولَّى الخلافة بين سنتي ٣٠٠ـ٣٥٠هـ، وقد عاش ابن عبد ربهِ في خلافتهِ ثمانيةً وعشرين عاما، لم يتوقَّف في هذهِ الأعوام عن قولِ الشِّعرِ في مدح النَّاصر والثَّناءِ عليهِ، فقد افتتحَ عهدهُ بتهنئة تولِّيهِ الخلافة بقولهِ[٥١]:

بدَا الهلالُ جديدَا   والمُلْكُ غضٌّ جديدُ
يا نعمةَ اللهِ زيدِي   ما كانَ فِيكِ مَزِيدُ
إنْ كانَ للصَّومِ فِطْرٌ   فأنتَ للدَّهْرِ عيدُ

وواكبَ انتصاراتِهِ على المتمرِّدِينَ واصفًا إيَّاها شعرًا، ومادحًا النَّاصِرَ مدائحَ بزَّ فيها مُعاصِريهِ، منها قولُهُ[٥٢]:

قدْ أوضَحَ اللهُ للإسلامِ منهاجَا   والنَّاسُ قد دخَلُوا في الدِّينِ أفواجَا

....

يا بنَ الخلائفِ إنَّ المُزْنَ لَو عَلِمتْ نَدَاكَ ما كانَ منها الماءُ ثَجَّاجَا

....

إنَّ الخلافةَ لَنْ ترْضَى، ولا رَضِيَتْ حتَّى عقَدتَ لها فِي رأسِكَ التَّاجَا

وقالَ فيهِ ذاتَ يومٍ مُرتجِلاً[٥٣]:

بدرٌ بدَا من تحْتِهِ أبلقُ يحسُدُ فيهِ المغْرِبَ المشرقُ

لمَّا بدَا للأرضِ مُسْتَبْهِجًا كادتْ لهُ عِيدانُها تُورِقُ

غمامُ عَدْلٍ باسطٌ كفَّهُ يرزُقُ منْها اللهُ ما يرزُقُ

عاد بِهِ الدَّهْرُ الذي قَدْ مضَى وَجُدِّدَ المُلكُ بِهِ المُخْلَقُ

ولم يكتفِ ابنُ عبدِ ربهِ بوصفِ غزواتِ النَّاصر ومدحهِ حتى نظمَ أرجُوزةً في غزواتِهِ انتهى بها إلى سنةِ ٣٢٢هـ، أي قبل وفاتِهِ بستِّ سنوات ضمَّت (٤٤٢) بيتًا، وصفَ فيها حُرُوبهُ وغزواتِهِ وتاريخ كُلِّ غزوة ... وقد أبدى فيها قدرةً واضحة في النَّظْمِ وتمكُّنَهُ منها، وثبوت قدمه في الأدب، وسعة أفقه في الخيال. وقد جانبَ الصَّواب كُلٌّ مِن (هيكل) و (أحمد أمين) حين قالا: «ليسَ فيها من عناصِر الشِّعْرِ شيءٌ ذو قيمةٍ»[٥٤]، و «ليس فيها خيالٌ ولا افتخار»[٥٥]. والذي يُنعِمُ النَّظرَ في الأرجوزة يجدُ ، بوضُوحٍ، عناصرَ الشَّاعريَّةِ والفنيةِ والخيالِ على السَّواء. وإن كانت، كما قالا «أشبهَ بالمنظوماتِ التاريخية» إلا أنَّ هذا لا يعنِي تجرُّدَها مِنَ الفنِّ وعنصرِ الخيال.

ثانيًا: القُوَّادُ والوُلاة

وعلى نحو ما اتصلَ ابنُ عبدِ ربهِ بخُلفاءِ الأندلُس ومدحَهم، اتَّصَلَ بقُوَّادِ أولئكَ الخُلفاء ووزرائِهم وولاتِهم في أكثرَ من بُقعةٍ على أرضِ الأندلُس، ومدحَهُم بقصائدَ مشهورة، ومن هؤلاء الولاةِ والقُوَّادِ:

إبراهيم بن حجاج بن عُمير بن حبيب اللخْمي: والي أشبيلية وقرمونة، وكان جوادًا مُمَدَّحًا مقصُودًا مُضيِّفًا يرتاحُ للثَّناءِ، ويُعطِي الشُّعراء، ويتفقَّدُ أهلَ البُيُوتاتِ والشَّرفِ بعطائهِ[٥٦]. وممَّا قالهُ ابن عبد ربه فيهِ مدحًا[٥٧]:

ألا إنَّ إبراهِيمَ لُجَّةُ ساحِلِ مِنَ الجُودِ أرستْ فَوقَ لُجَّةِ ساحِلِ

فأشبيلةُ الزَّهْراءُ تُزهَى بمَجْدِهِ وقرمُونةُ الغرَّاءُ ذاتُ الفضائِلِ

إذا ما تحلَّتْ تلكَ مِن نُورِ وجْهِهِ غَدَتْ هَذِهِ للنَّاسِ فِي زيٍّ عَاطِلِ

وإنْ حَلَّ في هذِهِ تُوحِشُ هذهِ فتُهدِي برُسْلٍ نحوهُ ورسائلِ

ولهُ فيهِ قصائِدُ غيرُ هذهِ[٥٨].

وممَّن مدحَهُم في أيامِ خلافةِ النَّاصر، القائد (أبو العباس، أحمد بن محمد بن أبي عبدة) ومن مدائحهِ فيهِ(٥٩):

اللهُ جرَّدَ للنَّدى والباسِ سيفًا، فقلَّدَهُ أبا العبَّاسِ
مَلِكٌ إذا استَقْبلتَ غُرَّةَ وجْهِهِ قبضَ الرَّجاءُ إليكَ رُوحَ الياسِ
وجْهٌ عليهِ مِنَ الحَياءِ سكينةٌ ومحبَّةٌ تجْري مَعَ الأنفاسِ
وإذا أحبَّ اللهُ يومًا عبدَهُ، ألقَى عليــــهِ محبَّةَ للنَّاسِ

والوزير الكاتب عبدالله بن محمد الزجالي «وكانَ عند النَّاسِ ذا حظوةٍ حسنةٍ، إلا أنَّ الأميرَ عزلهُ من خُطَّتي الوزارةِ والكتابةِ في بعضِ أوقاتِهِ لموجدةٍ وجدها عليهِ، ثُمَّ أقالهُ بعد مُديدةٍ وأعادهُ إلى خُطَّتِه»(٦٠)، فقالَ في ذلكَ ابن عبدِ ربهِ قصيدةً عبَّرَ فيها عن فرحتهِ، منها(٦١):

يا مَلِكًا يزْدَهِي بِهِ المِنْبَرْ والمَسْجِدُ الجامِعُ الَّذي عمَّرْ

....

ما فَرِحَ النَّاسُ مِثْلَ فرْحَتِهِمْ لَمَّا أُقِيلَ الأديبُ واستُوزِرْ
وابتَهَجَ المُلكُ حينَ دبَّرَهُ عينُ الإمامِ التي بِها يُبْصِرْ
قُطْبٌ عليهِ المدارُ أجْمَعُهُ فِي الأمْرِ والرَّأْيِ كُلَّمَا دَبَّرْ
لَمْ يَزَلِ البيتُ طُولَ غَيْبَتِهِ أعمى، فلمَّا استَوى بِهِ أبْصَرْ

وسيأتي ذكرُ مَن مدَحَهم مِنَ القُوَّادِ والولاةِ في حديثِنا عن غرضِ المديح ضمنَ أغراضِهِ الشعرية.

مرضُهُ وموتُهُ:

امتدَّ العُمرُ بابنِ عبد ربِّهِ، وحين بلغَ الثَّمانينَ «أصيبَ بمرضِ الفالج»(٦٢)، ويبدو انهُ مرِضَ في حدود سنة ٣٢٢هـ ؛ لأنهُ وقف ، في أرجوزتهِ التاريخية، عند هذهِ السَّنة، إلا أنَّهُ لم يتوقَّفْ عن قولِ الشِّعرِ، إذ تُجمِعُ المصادرُ على أنهُ قالَ أبياتًا «قبل موتِهِ بأحدَ عشرَ يومًا، وهو آخرُ شِعْرٍ قالَهُ، وفيهِ بيانُ مبلغ سنِّهِ»(٦٣). قال ابن خاقان: «وبلغَ ،أي ابن عبد ربه، سِنَّ عوف بن محلم، واعترفَ بذلكَ اعترافَ متألِّم، عندما وهت شِدَّتُهُ، وبَلِيت جِدَّتُهُ، وهو آخرُ شِعْرٍ قالَ، ثُمَّ عثرَ في أذيالِ الرَّدى وما استقال»(٦٤). والأبياتُ هيَ(٦٥):

كِلانِي لِمَا بِي عَاذِلَيَّ كَفَانِي طَوَيْتُ زَمَانِي بُرْهةً وَطَوانِي
بَلَيْتُ وأبْلَتْنِي الليالِي وكَرُّهَا وصرْفَانِ لِلأَيَّامِ مُعْتَوِرَانِ
وَمَا لِيَ لا أبْلَى لِسَبْعِيْنَ حِجَّةً وَعَشْرٍ أَتَتْ مِنْ بَعْدِهَا سنتَانِ؟
فَلا تَسْألانِي عَن تباريح علَّتِي ودُونَكُما مِنِّي الَّذي تَرَيَانِ
وإنِّي بحمْدِ اللهِ راجٍ لِفَضْلِهِ ولِي مِن ضَمانِ اللهِ خيرُ ضَمانِ
ولسْتُ أُبالي عن تباريحِ علَّتي إذا كانَ عقلِي باقيًا ولِساني

هُمَا مَا هُما في كُلِّ حالٍ تُلِمُّ بي فَذَا صَارِمِي فيهَا، وذَاكَ لِساني

وتوفِّيَ بقرطُبةَ، يوم الأحد لثنتي عشرةَ ليلةً بقِيت من جمادى الأولى[٦٦] سنة ثمان وعشرين وثلاث مئة[٦٧]. ودُفِنَ يوم الاثنين في مقبرةِ بني العباس[٦٨] بقرطبة، وهو ابن إحدى وثمانين سنة وثمانية أشهر وثمانيةَ أيام[٦٩].

وحينَ شُيِّعتْ جنازتُـهُ تجمَّـعَ حولها منَ النَّـاسِ حشدٌ كبيـرٌ أبْهَتَ يحيـى بن هُذيل، وكـان إذ ذاكَ صغيرًا، فسألَ: لِمَنْ هذهِ الجنازة؟ فقيلَ لهُ: «لشاعرِ البلد»[٧٠]، يقول الدكتور إحسان عباس: «وفي هذا دليلٌ بيِّنٌ على ما كانَ يتمتَّعُ بهِ هذا الشَّاعر مِنْ مكانةٍ في قُرْطُبة، وقد أثَّرَ ذلكَ في نفسِيَّةِ اليافع (يحيى بن هُذيل) فاتَّجهَ إلى دراسةِ الأدبِ ليحرُزَ مثل مكانةِ ابن عبدِ ربِّه»[٧١].

المبحثُ الثاني: شِعْرُهُ وأغراضُهُ الشِّعْرِيَّة

يُعدُّ ابنُ عبدِ ربِّهِ شاعرًا مُبْدِعًا سريعَ الخاطرِ ذا قُدرةٍ على الارتجالِ والنظمِ على البديهةِ، يسعى إليهِ الفن والشعر، لا يسعى هوَ إلى ذلكَ، وكيفَ لا وهو «قدوة شعراء الأندلس وأُدبائها»[٧٢] وقد ظلمَ بعضُ المُحدَثينَ هذا الشَّاعر بقولـهِ: «إنَّ التَّيَّارَ العاطفي في شعرِهِ مفقُودٌ أو مختنقٌ»[٧٣]. والحقُّ إنَّ الشعرَ الجيدَ يفرضُ نفسَهُ، ولكنَّ فسادَ الذَّوقِ يُبْعِدُ العاطفةَ ويقتُلُ الإحساسَ بالجمالِ، وإلا فما تراهُ يقُولُ في قولِ ابن عبدربهِ[٧٤]:

الجسْمُ في بلدٍ، والرُّوحُ فِي بَلَدٍ يا وحشةَ الرُّوحِ بل يا غُربةَ الجَسَدِ
إنْ تَبْكِ عَيْنَاكَ لي يا مَنْ كَلِفْتُ بِهِ مِنْ رَحْمةٍ، فَهُما سَهْمَاكَ في كَبِدِي

وفي قولِهِ[٧٥]:

ودَّعَتْنِي بِزَفْـرَةٍ واعتِناقِ ثُمَّ نادَتْ مَتَى يَكُونُ التَّلاقي
وتصَدَّتْ فأشْرقَ الصُّبحُ مِنْها بينَ تِلْكَ الجُيُوبِ والأطْواقِ
يا سقيمَ الجُفُونِ مِنْ غَيْرِ سُقْمٍ بينَ عَيْنَيكَ مَصْرَعُ العُشَّاقِ
إنَّ يَومَ الفِراقِ، أفظَعُ يَومٍ لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ يَومِ الفِراقِ

وَمِمَّن جانَبُوا الحقَّ في شعر ابن عبد ربِّه الأستاذ أحمد أمين بقولِهِ: «..فتراهُ في شعرهِ مُقيِّدًا نفسَهُ بِموضوعاتِ الشعرِ الشَّرقيَّة، لا يخرجُ عنها وببحُور الشِّعْر المأثورة وقوافيهِ لا يخرج عنها أيضًا، ونراهُ يُعارضُ المشارقة ويسيرُ في ركابِهم ويجتهد ما استطاع أن يأخُذَ معانيهم ويزيد عليها، ويختار في كُلِّ نوعٍ مِنَ الشعر إمامًا من المشارقة، فطورًا إمامُهُ صريع الغواني، وطورًا أبو نواس، وطورًا أبو العتاهية، وغيرهم، لم يتحرّر كافيًا، ولم يصغ إلى قلبهِ فقط...»[٧٦].

ولا أرى لهذهِ الأحكامِ وجْهًا مِنَ الصَّوابِ، إذ إنَّ كُلَّ الشُّعراء العرب، إلى يومنا هذا، كانُوا وما زالُوا يسيرون على نمطٍ واحدٍ في النَّظْمِ من حيثُ الشكلُ والموضوعاتُ وبُحُورُ الشِّعرِ التي توارثُوها، لا يخرُجُونَ عنها، فهل ابن عبد ربهِ فقط كان ينبغي أن يتمرَّدَ على المألوفِ قبل ما يزيدُ على ألفِ سنة...؟ أما سيرُهُ في ركب المشارقة؛ فلم يكن كذلك «وإنَّما يُعارضُهُم ويهدف إلى التَّفَوّقِ عليهِم، وكانَ مدفُوعًا إلى ذلكَ بثقافتهِ الأدبيَّة الواسعة وطبعه الفني الأصيل وروحه الأندلسي الطموح المتفق مع الاتجاه العام لعصرهِ، حيثُ كان الأندلسيونَ يحاولون دائمًا تأكيد ذواتِهم الأندلُسيَّة، وإثبات عدم تخلُّفهم عن المشارقة، فهو لم يكن يأخذُ معاني المشارقة، وإنما كانَ يحاولُ أن يُثبِتَ قدرتَهُ على الإتيانِ بمثلِها أو بأحسن منها، وهو لم يتخذ لنفسهِ إمامًا من شُعراء المشرق في كُلِّ فنّ، وإنَّما كانَ يُعارضُ هؤلاء الأئمة لِيُثبتَ أنهُ مثلُهم أو أقدرُ منهم، وهو لم يُجانب التحرُّر ويترك الإصغاء إلى قلبهِ، وإنما يتحرر فلم يلتزم مذهبًا معينًا، وأصغى إلى قلبهِ، فقالَ في أحاسيسهِ وخلجاتِه»(٧٧).

وربما كانت معارضتُهُ لمسلم بن الوليد في قصيدتهِ اللاميَّة، ثُمَّ تعليقه على ذلك خيرَ دليل على أنهُ لم يَكُنْ يسيرُ في رِكابِ المشارقة، وإنما كانَ يُحاولُ سبقَهم، استمع لقولهِ(٧٨):

أتقْتُلُني ظُلْمًا، وتجْحدُني قَتْلِي ... وقدْ قامَ مِن عَيْنيكِ لِي شاهِدَا عَدْلِ
أطُلاَّبَ ذَحْلِي ليسَ بِي غيرُ شادنٍ ... بِعَيْنِيهِ سِحْرٌ، فاطلُبُوا عِندَهُ ذَحْلِي(٧٩)
أغارُ على قَلْبِي، فلمَّا أتَيْتُهُ ... أُطالِبُهُ فِيهِ، أَغارَ على عَقْلِي
بنَفْسِي الَّتِي ضَنَّتْ بِرَدِّ سَلامِها ... ولو سألَتْ قَتْلِي، وَهَبْتُ لها قتْلِي
إذا جِئْتُها صَدَّتْ حَياءً بِوَجْهِهَا ... فتَهْجُرُنِي هَجْرًا أَلَذَّ مِنَ الوَصْلِ
وإنْ حكمتْ جارتْ عليَّ بِحُكْمِها ... ولكِنَّ ذاكَ الجَورِ أشْهَى مِنَ العَدْلِ
كتَمْتُ الهوَى جَهْدِي، فجرَّدهُ الأسى ... بماءِ البُكا، هذا يخُطُّ وذا يُمْلِي
وأحْبَبْتُ فِيها العَذْلَ حُبًّا لِذِكْرِها ... فلا شَيءَ أشْهَى في فُؤادي مِنَ العَذْلِ
أقُولُ لِقَلْبِي كُلَّما ضَامَهُ الأسَى: ... إذا ما أبيتَ العِزَّ فاصبِرْ على الذُّلِّ
برأْيِكَ لا رأيي تعرَّضْتُ لِلهَوى ... وأمْرُكِ لا أمري، وفِعْلكِ لا فِعْلِي
وجدتُ الهوى نصْلاً مِنَ المَوتِ مُغْمَدًا ... فجرَّدتُهُ، ثُمَّ اتَّكأتُ على النَّصْلِ
فإنْ كُنْتُ مقْتُولاً على غَيرِ رِيبةٍ ... فأنْتِ الَّتي عرَّضْت نفْسِيَ لِلْقَتْلِ

وعقَّبَ على قصيدتهِ هذهِ بقولِهِ: «فَمَن نظرَ إلى سهولةِ هذا الشِّعْرِ معَ بديعِ معناهُ ورقَّةِ طبعِه لم يفضلهُ شعرُ صريع الغواني عندهُ إلا بفضْلِ التَّقَدُّم»(٨٠).

هذا وقد ناقضَ الأستاذ أحمد أمين قولهُ الأول الذي جانبَ فيهِ الصَّواب بقولِهِ في شعرِ ابنِ عبد ربهِ: «أمَّا ما بينَ أيدينا؛ فشعرُهُ العاطفي من غزلٍ وزهدٍ وهجاءٍ شعرٌ جيدُ العاطفةِ، قوي الخيالِ، رصين الأسلوب»[٨١].

وقال المستشرقُونَ في ابنِ عبدِ ربهِ ما قالهُ العربُ في أحمد شوقي من حيثُ ارتباطُهُما بالبلاطِ ومدى تأثيرِ ذلكَ في شعرِ كُلٍّ منهُما وموهبتِهِ، يقول المستشرق الأسباني (بالنثيا) عنهُ: «إنهُ كانَ شاعرَ بلاطٍ صِرف، ولم يكن ذا شاعريَّةٍ مُمتازة»[٨٢]، ونظيرُ هذا القول، قولُ طهَ حُسين في شوقي: «إنَّ ربَّةَ شعْرِ شوقي كانت سجينةً في قفصٍ ذهبِيٍّ هوَ القصرُ، تتغنَّى ولكن بغناءٍ فاترٍ... كانت ربَّةُ الشعرِ أسيرةَ الأميرِ لا تنطقُ إلاَّ بما يُريدُ وحينَ يُريد»[٨٣]، وفي موضع آخر يقول: «ليتَ شوقي لم يكن شاعِرَ الأميرِ قط»[٨٤].

ولا نُنكِرُ أن يكُونَ ابنُ عبد ربِّهِ شاعر بلاطٍ، فأشعارُهُ في الخُلفاء والأمراء تُثبتُ ذلكَ، وشاعر جماهير أيضًا، وربَّما كانت أشعارُهُ الجماهيرية أكثَرَ بكثيرٍ من غَيْرِها، والنُّتَفُ الباقيةُ من شعرِهِ والقطعُ المجموعة في ديوانهِ تُؤكِّدُ أنَّهُ قال في أغراضِ الشِّعْرِ المختلفة بعيدًا عنِ البلاطِ والأمراءِ، فلهُ حياتُهُ الخاصَّةُ وحريَّتُهُ في التَّعبيرِ، وهذا ما يدحضُ قول (بالنثيا): «كان شاعرَ بلاطٍ صِرف». كما أنَّنا لا نُنكرُ كونَ شوقي شاعرَ بلاطٍ للسَّببِ نفسهِ من ناحيةٍ، وشاعر أمَّةٍ بأجمعِها من ناحيةٍ أُخرى، فارتباطُ الشَّاعر الجُزئي ببِلاطِ عصرِهِ لا ينبغي أن يكُونَ عيبًا يُوصَمُ بهِ ويُقلِّلُ من قيمتهِ الفنيَّة، وحسبُنا دليلاً على قوَّةِ شاعريَّةِ ابنِ عبد ربهِ رأي (المتنبِّي) فيهِ، إذ ينقُلُ لنا ابنُ خاقان «أنَّ الخطيبَ أبا الوليدِ بن عبَّاد حجَّ، فلمَّا انصرفَ تطلَّعَ إلى لقاءِ المتنبِّي واستشرفَ، ورأى أنَّ لُقيتَهُ فائدة يكتسِبُها وحُلَّةُ فخرٍ لا يحتسِبُها، فصارَ إليهِ فوجدهُ في مسجدِ عمرو بن العاص، ففاوضهُ قليلاً ثُمَّ قالَ: أنشِدْنِي لمليحِ الأندلُس، يعني ابن عبدِ ربهِ:

يا لُؤلُؤًا يَسْبِي العُقُولَ أنِيْقًا ورَشًا بِتَقْطِيعِ القُلُوبِ رَفِيْقَا
مَا إنْ رأيْتُ ولا سَمِعْتُ بِمثْلِهِ دُرًّا يعُودُ مِنَ الحياءِ عَقِيْقَا
وإذَا نظَرتَ إلى محاسِنِ وجْهِهِ أبصَرْتَ وجْهَكَ في سناهُ غَرِيْقَا
يا مَنْ تَقَطَّعَ خَصْرُهُ مِن رِقَّةٍ ما بالُ قَلْبِكَ لا يكُونُ رقيقَا[٨٥]

فلما أكملَ إنشادَهُ استعادَها منهُ، ثُمَّ صفَّقَ بيدَيهِ وقال: يا ابن عبد ربهِ لقد تأتيكَ العِراقُ حبْوًا»[٨٦]. وتلكَ لعمري، شهادةٌ مِن أميرِ الشِّعْرِ العربي لابنِ عبدِ ربِّهِ تدحضُ مِراءَ كُلِّ جاهل بالأدبِ، متطفِّل عليهِ كالمستشرق بالنثيا.

ديوانُهُ والسِّمات الفنية لشعرِهِ

ترك ابن عبد ربـهِ تُراثًا أدبيًّا ليس بالقليل، فشعرُهُ كثير، يقول الحميدي: «رأيتُ منهُ نيِّفًا وعشرين جُزءًا»(٨٧)، ويقول ابن خلكان: «لهُ ديوان شعرٍ جيِّدٌ»(٨٨)، أما ابن العماد فينقُلُ أنَّ لهُ ديوانًا وشعرًا جيِّدًا «وشعرُهُ في الذروةِ العليا»(٨٩)، ومع أن هذا الديوان لم يصل إلينا، إلا أنَّ كُتُبَ الأدبِ والعقد الفريد يضمُّ كثيرًا من مقطوعاتهِ ونتفًا منهُ، وهذا ما دفعَ أحد المهتمِّينَ بالأدبِ الأندلسي من أدبائنا المعاصرين، وهو الأستاذ د. محمد رضوان الدَّاية إلى جمعِ ما تناثرَ من شعرِ هذا الأديب الأندلسي الكبير في العقد وغيرهِ من المصادر الأندلسية، ولا سيما كتب التراجم والتَّاريخ.

وقد وُفِّقَ الأستاذُ (الدَّاية) إلى جمعِ (١٣٩٦) بيتًا من شعرهِ موزَّعة على (٢٩٣) قصيدة ومقطوعة جاءت على بُحُورِ الشِّعرِ العربيِّ المعروفة إلاَّ المتدارك، على النحو الآتي:

الكامل (٦١) قصيدة ومقطوعة . الطويل (٥٩) . البسيط (٥٤) . الوافر (٢٨) . المنسرح (١٤). المديد (١٢) . الخفيف (١٢) . الرَّمل (١٠) . الرَّجز (٩) . الهزج (٥) . المتقارب (٥) . المجتث (٢). المقتضب (١) . المضارع (١) .

فضلاً عن أُرجوزتهِ التاريخية التي بلغت (٤٤٢) بيتًا، والعروضية (١٩٢) بيتًا.

وقد ذكرَ الأستاذ (الدَّاية) أنَّ «ديوان شعر ابن عبد ربه كانَ في جملةِ ما اعتنى بهِ الحكم المستنصر خليفة قرطبة العظيم، وممَّا ضمَّهُ من آثار الأندلسيين إلى مكتبتهِ وعلَّقَ عليهِ بخطِّ يدهِ»(٩٠). وعلى هذا؛ فابنُ عبدِ ربـهِ تركَ شُهرةً أدبيَّةً خالدةً، مِمَّا يُدلِّلُ على النُّبُوغِ والعبقريَّةِ، ومعَ ضياعِ أغلبِ شعرهِ فقد خلف موضوعات متعدِّدة، فالظروفُ التي أحاطت بهِ مُدَّةَ حياتهِ الطويلة كان لها تأثيرٌ كبيرٌ في نفسهِ حيثُ كانَ أبيَّ النَّفسِ تمنَّى أن يتمتَّعَ بالحياةِ أوَّلاً، ثُمَّ أعرضَ عن ذلكَ بِهُدُوءٍ وحصافة، فأثارَ ذلكَ مشاعرَهُ وألهبَ عواطِفَهُ فسكبَ إحساسُهُ في موضوعاتٍ شعريَّةٍ شتَّى من غزلٍ ووصفٍ للخمرِ والطَّبيعةِ، ومدحٍ ورثاءٍ وهجاءٍ وزهدٍ وحكمةٍ ...إلخ، ومَن يتأمَّلُ شعرَهُ يجدُ أنَّهُ نابعٌ من نفسهِ وحِسِّهِ، وهو صورة واضحة لتجاربَ شخصيَّة تأثَّرَ بها وجدانُهُ، ولذا فشعرُهُ مُستمَدٌّ مِنَ الواقعِ المُعاش، وهذا هو السِّرُّ في تصويرهِ الصَّادق لكثيرٍ من ظواهر الحياةِ والنفسِ البشريَّة.

أمَّا أهمُّ ما يُميِّزُ شِعْرَهُ؛ فـ:

أوَّلاً: السُّهُولة، على الأعم الأغلب، حتى لَيَشعُرَ القارئ أنَّهُ يقرأُ لِشاعرٍ مُحدثٍ أو مُعاصر، كقولهِ في بعضِ انتصارات الأمير عبدالله(٩١):

هُوَ الفتحُ منظُومًا بآثارِهِ الفتْحُ ... ومَا فِيْهِما عَهْدٌ، ولا فيهِما صُلْحُ

وهذهِ السُّهُولةُ إنَّما تُحسَبُ لهُ لا عليهِ، وقد تعرَّضَ لها دارِسُو الأدب الأندلُسي والمُعْتَنُون بهِ(٩٢).

ثانيًا: الموسيقى الفنيَّة العجيبة، التي تُضفي عليهِ غنائيَّةً تشدُّ الأسماعَ وتسحرُ الألبابَ برقَّةٍ وسلاسةٍ وتأجُّج عاطفة، نحو قولهِ(٩٣):

سرى طيفُ الحبيبِ على البِعَادِ   ليُصلِحَ بينَ عينِي والرُّقادِ
فباتَ إلى الصَّباحِ يدي وِسادٌ   لوجْنتِهِ كَما يدُهُ وسادِي
بنفسِي مَن أعادَ إلَيَّ نفْسِي   وردَّ إلى جوانِحِهِ فؤادِي
خيالٌ زارنِي ، لمَّا رآنـي   عدتنِي عَنْ زيارَتِهِ عوادِي
يُواصِلُنِي على الهجْرانِ منْهُ   ويُدْنِيْنِي على طُولِ البِعَادِ

وقد غفل الأستاذ (أحمد ضيف) أو تغافلَ هذهِ الناحيةَ في شعرِ ابنِ عبدِ ربهِ حين قال: « والحقّ انَّ مقطوعاتِهِ الشِّعريَّةَ في الغزلِ والوصفِ من أرقِّ الشِّعرِ المعروف في ذلكَ وأحسنه، وأجمل شعره في هذا النوعِ، وكلُّ هذا من قبيلِ الصِّناعةِ وحُبِّ الكلامِ الجميل؛ لأنهُ كان منَ الذينَ يميلُونَ إلى قولِ الشِّعْرِ ونظمِ الكلامِ لا مِمَّن خُلِقُوا شُعراء»(٩٤). وكأنَّهُ كانَ في قلبهِ يشعُر بشعورِهِ ويحسّ بإحساسهِ، وأين هُوَ مِنْ قولِهِ فيهِ: «كانَ رقيقًا في شعرِهِ وميَّالاً إلى الرِّقَّةِ في كُلِّ شيءٍ وإلى الابتكار في المعاني والأساليب»(٩٥).

ثالثًا: الثَّقافة الواسعة، ومما يميِّزُ شعرَ ابن عبد ربهِ ثقافتهُ الواسعة وحفظهُ الجمّ الوفير، فضلاً عنِ الفصاحةِ مع البديهةِ وحُسنِ البيانِ والاستعداد الفنِّي، وهذا كُلُّهُ جعلَ منهُ شاعرًا أعزَّ الشِّعرِ جزلَهُ، رصينَ العبارةِ الشِّعْريَّةِ رقراقَها.

أغراضُهُ الشِّعريَّةُ

ذكرنا آنفًا أنَّ لابنِ عبدِ ربهِ شعرًا كثيرًا متميِّزًا، وفي شعرِهِ نلحظُ المديحَ والغزل والرِّثاء والزهد ووصف الحروب... ولا أكادُ أجدُ مسوِّغًا لِما ذهبَ إليهِ دكتور إحسان عباس من أنَّ «الهجاءَ هوَ الموضوعُ الذي كان ابنُ عبدِ ربهِ مُهيَّئًا لهُ بطبعهِ»(٩٦)، فلم يكن الرَّجُلُ كذلكَ، وإن كانَ حادَّ الطَّبعِ، ولكنَّ هذا الرَّأيَ وغيرَهُ مِنَ الآراءِ التي لا تقُومُ على أُسُسٍ ثابتةٍ وليسَ لها رصيدٌ في الواقعِ، هيَ في الحقيقةِ أصداءٌ لأقوالٍ قيلت قبلَ أكثر من نصفِ قرنٍ، وأطلقها مستشرقُونَ أو متحاملونَ على الأدبِ العربيِّ وأهلهِ، أمثال (بالنثيا) و (جبور) وغيرهما.

فالمديحُ والغزلُ والرِّثاءُ والزُّهدُ ووصفُ الحُرُوبِ، هي أجودُ أغراضِ ابن عبد ربهِ الشِّعريَّة، أمَّا المديحُ؛ فلنا وقفةٌ معهُ، وأمَّا الغزلُ؛ فيعُجُّ بالملاحةِ والرِّقَّةِ والسُّهُولةِ، وتُهَيمِنُ عليهِ الغنائيَّة والموسيقى، من ذلكَ قولهُ(٩٧):

هيَّجَ الشَّوقُ دواعِي سَقَمِي وكَسا جِسْمِيَ ثَوبَ الأَلَمِ

أيُّها البينُ أَقِلْنِي مرَّةً فإذا عُدتُّ فقد حَلَّ دَمِي

يا خَلِيَّ الذَّرْعِ نَمْ فِي غِبْطَةٍ إنَّ مَنْ فارقْتَهُ لَمْ يَنَمِ

وَلَقَدْ هاجَ لِقَلْبي سَقَمَا، ذِكْرُ مَنْ لو شاءَ داوى سقمي

وقوله(٩٨):

أزِفَ الرَّحيلُ فودَّعَتْني مُقْلةٌ أوحتْ إليَّ جُفُونُها بِسلامِ

وتطلَّعتْ بينَ الحدُوجِ كأنَّها شمسٌ تطلَّعُ في خلالِ غَمامِ

وشَكَتْ تباريحَ الصَّبابةِ والهَوى بِمدامعٍ نطَقَتْ بِغَيْرِ كلامِ

وقرأتُ في (نفحِ الطيبِ) قولَ المقرِّي: «ومِمَّا يجبُ حِفظُهُ مِن مُخْتَرَعاتِ الأندلُسيِّينَ قولُ ابنِ عبدِ ربِّهِ»(٩٩):

يا ذَا الَّذي خطَّ الجَمَالُ بِخَدِّهِ خَطَّيْنِ هاجا لوعةً وبلابِلا

مَا صَحَّ عِنْدِي أنَّ لحظَكَ صارِمٌ حتَّى لَبِستَ بِعارِضَيْكَ حمائِلا(١٠٠)

فضلاً عن قطعٍ كثيرةٍ كالتي أثارت إعجابَ المتنبيّ، وغيرها.

أمَّا الرِّثاءُ في شعرِ ابن عبدِ ربِّهِ فيفيضُ بِكُلِّ عناصر هذا الغرضِ في الشِّعرِ العربي الأصل، وقد اقتصرَ رثاؤُهُ، في ما وصلَ إلينا من شعرِهِ، على اثنينِ من أبنائهِ فقدَهُما، وكان أحدُهما طفلاً والآخرُ كبيرًا يُكنَّى (أبا بكرٍ ويُسمَّى: يَحيى) وقد أكثرَ مِن رثائِهِما، ومِمَّا قالهُ في يحيى(١٠١):

بَلِيَتْ عظامُكَ والأسى يتجَدَّدُ والصَّبْرُ ينفدُ، والبُكا لا ينفَدُ

يا غائبًا لا يُرْتَجِى لإيابِهِ ولِقائِهِ، دونَ القِيامةِ، موعِدُ

وقالَ فيهِ أيضًا(١٠٢):

قَصَدَ المنُونُ لهُ فَمَاتَ فَقِيْدَا ومضَى على صرفِ الخُطُوبِ حميدَا

بأبِي وأُمِّيَ هالِكًا أفردتُهُ قَدْ كانَ في كُلِّ العُلُومِ فريدَا

سُودُ المقابِرِ أصبحَتْ بِيْضًا بِهِ وغَدتْ لهُ بِيضُ الضَّمائِرِ سُودَا

....

كانَ الوصِيَّ إذا أردتُّ وصيَّةً والمُسْتَفَادُ إذا طلبْتُ مُفِيدَا

ولَّى حَفيْظًا فِي الأذِمَّةِ حافِظًا وَمَضَى وَدُودًا فِي الورى مَودُودَا

ما كانَ مثْلِي في الرَّزِيَّةِ والِدًا ظَفِرَتْ يداهُ بِمثْلِهِ مَولُودَا

....

أبكي عليكَ إذا الحمامةُ طرَّبتْ وجْهَ الصَّباحِ وغرَّدتْ تَغْرِيدَا

لولا الحياءُ وأنْ أُزَنَّ بِبِدْعَةٍ مِمَّا يُعَدِّدُهُ الورى تَعْدِيْدَا

لجَعَلْتُ يومَكَ في المنائحِ مأتَمًا وجعلْتُ يومَكَ فِي الموالِدِ عِيْدَا

وممَّا قالهُ في رثاءِ ابنهِ الطفل(١٠٣):

على مِثْلِها مِن فَجْعةٍ خانَنِي الصَّبْرُ فراقُ حبيْبٍ دُونَ أوبتِهِ الحَشْرُ

ولِي كَبِدٌ مشطُورةٌ في يَدِ الأسَى فتَحْتَ الثَّرى شَطْرٌ، وفوقَ الثَّرى شطرُ

يقُولُونَ لي: صَبِّرْ فُؤادَكَ بَعْدَهُ فقُلْتُ لَهُمْ: ما لِي فُؤادٌ ولا صَبْرُ

فريْخٌ مِنَ الحُمرِ الحَواصِلِ ما اكتَسَى مِنَ الرِّيشِ حتَّى ضمَّهُ المَوتُ والقبْرُ

إذا قلتُ: أسلُو عنهُ هاجَتْ بَلابِلٌ يُجَدِّدُها فِكْرٌ، يُجدِّدُهُ ذِكْرُ

وأنظُرُ حولِي لا أرى غَيْرَ قَبْرِهِ كأنَّ جَمِيعَ الأرْضِ عِنْدِي لَهُ قَبْرُ

أفَرْخَ جِنانِ الخُلْدِ طِرْتَ بِمُهْجَتِي وليسَ سِوى قَعْرِ الضَّرِيْحِ لهُ وكْرُ

وجوَّدَ ابن عبد ربهِ في وصفِ الحروبِ والمعارك، وكانت غايتهُ في ذلكَ التجديدَ وابتكار المعاني، وقد أوردَ لـهُ نماذج كثيرة في كتابـهِ (العقد الفريد) وقال في مستهلِّ ذلكَ: «وقد وصفنا الحربَ بتشبيهٍ عجيبٍ لَم يُتقدَّم إليهِ، ومعنًى بديعٍ لا نظيرَ لهُ. وذلكَ قولُنا: »(١٠٤)

وجيشٍ كظَهْرِ اليَمِّ تَنفَحُهُ الصَّبَا يعُبُّ عُبُوبًا مِن قَنًا وقنابِلِ

فتنزلُ أُولاهُ وليسَ بنازلٍ وترحلُ أُخراهُ وليسَ بِرَاحِلِ

ومُعترَكٍ ضَنْكٍ تعاطَتْ كُماتُهُ كؤوسَ دِماءٍ مِن كُلًى ومفاصِلِ

يُدِيرُونَها راحًا مِنَ الرُّوحِ بَيْنَهُمْ ببِيضٍ رِقاقٍ أو بِسُمْرٍ ذَوابِلِ

وتُسْمِعُهُمْ أُمُّ المَنِيَّةِ وَسْطَهَا غِناءَ صَلِيْلِ البِيْضِ تَحْتَ المناصِلِ

ومن قولِهِ أيضًا في وصفِ الحربِ(١٠٥)

سُيُوفٌ يَقيلُ الموتُ تحتَ ظُباتِهَا لها في الكُلى طعمٌ وبينَ الكُلى شربُ

إذا اصطفَّتِ الرَّاياتُ حُمرًا مُتُونُها ذَوائِبُها تَهْفُو فيهفُو لَها القَلْبُ

ولَمْ تَنْطقِ الأبطَالُ إلاَّ بِفِعْلِهَا فألسُنُهَا عُجْمٌ وأفْعَالُها عُرْبُ

إذَا ما التَقَوا فِي مأزقٍ وتَعَانَقُوا فَلُقْياهُمُ طَعْنٌ وتعنيقُهُمْ ضَرَبُ

ويأتي الهجاءُ غرضًا ثانويًّا عابرًا في شعرهِ؛ لأنهُ ليس مُهيَّئًا لهُ بطبعِهِ، على ما ادَّعى إحسان عباس، وإن كانَ سريعَ الغضبِ حادَ الطبعِ، إلا أنَّ هذا لا يعني أنهُ يفقدُ صوابهُ فيقولُ ما لا يُقالُ، خُذ مثلاً أنهُ كانَ صديقًا للشاعرِ ابن قِلفاط، ثُمَّ حدثت حادثة أثارت نارَ الهجاء بينهما، ولم يكن ابن عبد ربه هو البادئ بذلكَ، فقد هجاهُ ابن قلفاط بقصيدتهِ المفحشة التي أوَّلُها:

يا عِرسُ أحمدَ إنِّي مُزْمِعٌ سَفَرَا فَوَدِّعِيْنِيَ سِرًّا مِن أبي عُمَرَا

وكان القلفاطُ في الهجاءِ أمسَّ من ابن عبد ربهِ، وحدثَ أنِ اجتمعَ ابن عبد ربهِ والقلفاط ذات يومٍ عند بعضِ الوزراء أيَّام تفاسدَا وتهاجَيَا، فقالَ الوزيرُ للقلفاط: كيفَ حالُكَ اليوم يا أبا عبد الله معَ أبي عمَر؟ فقال القلفاطُ بديهةً:

حالَ طلاسٌ لي عن رائِهِ وكُنتُ في قُعْدَدِ أبنائِهِ

فأتى لابن عبدِ ربهِ أن أجابَهُ مُسْرِعًا، فقال:

إن كُنتَ فِي قُعْدَدِ أبنائِهِ فقد سقَى أُمَّكَ من مائِهِ

فقطعهُ ابن عبد ربهِ وعجِبَ الوزيرُ من قُوَّةِ بديهتهِ وانقطعَ القلفاطُ خجلاً(١٠٦).

مِمَّا تقدَّم يتضحُ لنا أنَّ الذي كانَ مُهيَّئًا للهجاءِ بطبعهِ هوَ القلفاط وليس ابن عبد ربهِ، وتخبرنا المصادر أنَّ القلفاط هذا غلبَ على شعرِهِ الهجاء، فلم يوقِّر كبيرًا ولا صغيرًا، إلى أن هدَّدَهُ ابن حجاج صاحب أشبيلية ومنعهُ عنِ الهجاء(١٠٧).

ومن هجاءِ ابن عبد ربهِ، إن صحَّت عليهِ هذهِ التسمية، الَّذي لا يدلُّ على حنقٍ أو عداء شخصي، وإنما على فهمٍ خاطئٍ لحقيقةٍ علميَّةٍ لم تكن معروفةً للناسِ آنذاك، وهي أنّ العالِمَ العربيَّ (أبو عبيدة، مسلم بن أحمد البلنسي) العالم بالحسابِ والنجومِ والجغرافيا، صرَّحَ بِبعْضِ المعارف والعلومِ التي يجهلُها ابن عبد ربهِ فلم يُصَدِّقْها، وعدَّها من قبيلِ الخرافةِ وخوارقِ العادات، فردَّ على هذا العالمِ ما صرَّحَ بهِ وكذَّبهُ بقصيدةٍ قالَ فيه(١٠٨):

أبا عُبيدةَ والمسؤول عن خَبَرٍ يحكيهِ، إلاَّ سُؤَالاً لِلَّذي سألا
أبيتَ إلا شُذُوذًا عنْ جَماعَتِنا ولَم يُصِبْ رأيُ مَنْ أرجا ولا اعتزلا
كذلكَ القِبلةُ الأولى مُبَدَّلةٌ وقَد أبيْتَ فما تبْغِي بِهَا بَدَلا
زَعَمْتَ بَهْرامَ أو بيدَخْتَ يرزُقُنَا لا بل عطارد أو برجيس أو زُحلا
وقُلْتَ: إنَّ جميعَ الخلقِ في فلَكٍ بهم يُحيطُ وفيهم يُقْسِمُ الأجلا
والأرضُ كوريَّةٌ حفَّ السَّماءُ بها فوقًا وتحتًا، وصارت نُقطةً مَثلا
صيفُ الجَنُوبِ شِتاءٌ للشِّمالِ بِها قد صارَ بيْنَهُما هذا وذا دُوَلا

فإنَّ كانُونَ فِي صَنْعَا وقُرطُبَةٍ   بردٌ، وأيلُولُ يُذكي فِيْهِما الشُّعَلا
هذا الدليلُ، ولا قولٌ غُرِرْتَ بِهِ   مِنَ القوانينَ يُجْلِي القولَ والعَمَلا
كما استمرَّ ابنُ موسى فِي غِوايتِهِ   فوعَّرَ السَّهلَ حتَّى خِلْتُهُ جَبلا
أبلغْ مُعاويةَ المُصْغِي لِقَولِهما   أنِّي كَفرتُ بِما قالا وما فَعلا

هذا، وقد كانت علاقتُهُ معَ الناسِ طيِّبةً جدًّا(١٠٩).

وَمِنَ الأغراضِ التي طرقها ابنُ عبدِ ربهِ في شعرهِ، وأجادَ فيها وابتكرَ بعضَ معانيها، الوصفُ، إذ تفاعلَ معَ الطبيعةِ، فوصفَ كُلَّ ما وقعَ عليهِ نظرُه. وصفَ الحدائقَ والرياضَ والبساتين والعِنبَ والسَّمك والعُودَ والقلمَ والبحرَ والسفينة ... وأوصافُهُ هذهِ تزخرُ بالتَّشبيهاتِ الحسنةِ الَّتي لم يَسبِقْهُ أحدٌ إليها من قبلُ، ولذا أكثرَ ابنُ الكتَّاني في كتابهِ (التشبيهات من أشعارِ أهلِ الأندلس) منَ الاحتيارِ لابن عبد ربهِ في هذا الغرض، ومن شعرهِ في ذلكَ، قولُهُ يصِفُ سمكةً(١١٠):

أهديتُ أزرقَ مقرونًا بزرقاءِ   كالماءِ لَمْ يغْذُها شيءٌ سِوى المَاءِ
ذَكَاتُها الأخذُ ما تنفكُّ طاهِرةً   بالبرِّ والبحْرِ أمواتًا كأحياءِ

وقوله يصِفُ عِنَبًا أبيضَ وأسودَ(١١١):

أُهديتُ بيضًا وسودًا فِي تلوُّنِها   كأنَّها مِن بناتِ الرُّومِ والحَبَشِ
عَذراءُ تُؤْكَلُ أحيانًا وتُشْربُ أحـ   يانًا فتَعْصِمُ من جُوعٍ ومنْ عَطَشِ

أمَّا المديحُ، الذي أرجأتُ الكلامَ عليهِ؛ فإنَّ أخبارَ ابنِ عبدِ ربهِ وديوانَهُ يؤكِّدانِ أنَّهُ قالَ شعرًا كثيرًا فيهِ، وقد عددتُ لهُ مِنَ الممدوحينَ عشرة، هُم: عبد الرحمن الناصر، الأمير محمد، وابنهُ المنذر، إبراهيم بن حجاج، القائد أحمد بن محمد بن أبي عبيدة، أبو العباس القائد، عبد الله بن محمد الزجالي، أيوب بن سليمان المعافري، بدر بن أحمد الحاجب، محمد بن وضاح. وقد وُفِّقَ الأستاذ (الداية) إلى جمعِ ثلاثةٍ وأربعين ومئتي بيت من شعرهِ في هذا الغرض، فضلاً عنِ الأُرجُوزة التاريخيةِ التي بلغت اثنين وأربعين وأربعمئةِ بيت، وقصائد أخرى ذكرت المصادرُ مطالِعَها أو جزءًا منها واكتفت بالقول: «وهي طويلةٌ جدًّا»(١١٢) أو «وهيَ طويلة»(١١٣) أو «أطالَ فيها»(١١٤).

ولا أدري، على ما ذا بنى الأستاذ (جبور) حُكمَهُ على مديحِ ابن عبد ربهِ حين قال: «ويصدُقُ على شعرِ ابن عبد ربهِ في المدحِ من حيثُ قلتُهُ وحُكمنا عليهِ، ما يصدُقُ على شعرِهِ في الهجْوِ»(١١٥). إذ لا ينبغي إصدارُ حُكمٍ عامٍّ على شاعرٍ أُجمِعَ على أنهُ كانَ «شاعرَ الأندلُس وأديبها» وعاصر بل

عايشَ أربعةَ خلفاء ولهُ ديوان، لا ينبغي أن نحكُمَ بأنَّهُ قليلُ الشِّعرِ أو أنَّ شعرهُ في المديحِ قليل، ثُمَّ يتبيَّنُ أنَّهُ كانَ مُبرِّزًا فيهِ ومُكثِرًا.

ولهذا تغيَّرَ الحُكمُ عند جامعِ شعرِهِ، فقالَ بلسانِ المحقِّقِ المُدقِّق: «إذا جازَ لنا الاحتكام إلى القِطعِ الباقيةِ من شعرهِ، فإنَّا نجدُ شعرَهُ الأغراضَ الآتية: المديح والغزل والعتاب والأُخوانيات والرثاء والزهد... وإنَّ المديحَ كانَ في أغراضِهِ الرئيسة، وإنَّهُ توجَّهَ بهِ إلى الأمراءِ والخلفاءِ منَ المروانيين وإلى غيرِهم من رجالِ الدولة وعلمائِها»[١١٦]. وقالَ أيضًا: «وكان شعرُ المديحِ مناسبةً لإظهارِ موهبةِ الشاعِرِ في وصفِ المعاركِ وتسجيلِ أحداثِها وإظهارِ بُطُولاتِ القُوَّادِ والمُحاربينَ في نَفَسٍ مُقتدرٍ على الإطالةِ وعدم الإملال»[١١٧].

من هُنا يتبيَّنُ لنا عدمَ الدِّقَّةِ في الحُكمِ الَّذِي أطلَقَهُ (جبور) في غرضِ المديحِ عند ابن عبد ربهِ، فلا يُؤخذُ بقولِهِ على إطلاقهِ، ولا سيما بعد جمعِ كثير من شعرِ هذا الشاعرِ الذي لم يطَّلع عليهِ (جبور) وقت كتابةِ بحثِهِ قبل أكثر من نصفِ قرن.

الخاتمة

كانت جولةً سريعةً تلك الصفحات القليلة التي تقدَّمت، حاولتُ فيها كشفَ النقابِ عن جوانبَ من حياةِ شاعرِ الأندلس وأديبها، ابن عبد ربه، لا أقولُ: إنني جئتُ بجديد، ولكنَّ الذي أُأكدُهُ هو أنَّ هذا الأديبَ الأندلُسيَّ لم يحظَ بما يستحقُّ من دراسةٍ إلى الآن، وكلُّ الدراسات التي عُقدت حولهُ لم تتعمَّق في حياتهِ العمق المطلوب بما في ذلكَ دراسة جبرائيل سليمان جبور التي كان ينقصُها كثيرٌ منَ المصادر القديمةِ التي لم تكن منشورة آنذاك. وكذلك دراسة إفرام البستاني.

وقد بدا لي بوضوح أنَّ حياةَ هذا الشاعر الأديب كانت على وتيرةٍ واحدةٍ مدَّةً تزيدُ على سبعين عامًا، أي حتى سنة ٣٢٢هـ، ثُمَّ تغيَّرَ اتجاهُها وحُوِّلَ مسارُها.

كما تبين أنَّهُ شاعرٌ مُكثرٌ ومدَّاحٌ بارع ذا نفسٍ طويلٍ، ومجدِّد مبتكر لكثير منَ الصُّور والمعاني، ولم يكن طبعُهُ مُهيَّئًا للهجاءِ، كما ادَّعى بعضُ الباحثين، بل لم يكن هجاءً البتَّةَ، ويكادُ يكونُ غرضُ الهجاءِ لا وجُود لهُ في شعرِهِ.

هوامش البحث

(١) تُنظرُ في الديوان: ٢١-٢٢.
(٢) كلُّ من ترجم لابن عبد ربهِ أو ذكرهُ في كتابٍ كنَّاهُ بهذهِ الكنيَةِ. ينظر: تاريخ العلماء والرواة للعلمِ بالأندلس ٥٠/١، جذوة المقتبس ٩٤، مطمح الأنفس ٥١، بغية الملتمس ١٣٧، المطرب من أشعارِ أهلِ المغرب ١٥١، وفيات الأعيان ١١٠/١، المختصر في أخبار البشر ١٠٩/٣، الوافي بالوفيات ١٠/٨، تذكرة الحفاظ ٥٩/٣، البداية والنهاية ١٩٣/١١.
(٣) (حُدير) بضم الحاء وفتحِ الدال وسكون الياء، والراء آخر الحروف. وفيات الأعيان ١١٢/١، وورد في البداية والنهاية (جرير) محرَّفًا .
(٤) ينظر: تاريخ العلماء والرواة للعلمِ بالأندلس ٥٠/١ ، وفيات الأعيان ١١٠/١، المختصر في أخبار البشر ١٠٩/٣.
(٥) ينظر: جذوة المقتبس ٩٤، وفيات الأعيان ١١٢/١، الوافي بالوفيات ١٠/٨.
(٦) الديوان: ١٥٧.
(٧) الديوان: ١٢٤. ١٢٥.
(٨) ساقُ حُرٍّ: الذكر من القماري (الحمام القمري)، وساق الثانية: الشجرة . (الديوان).
(٩) الديوان: ١٧٤.
(١٠) المُطرب من أشعارِ اهلِ المغرب: ١٥٢. وينظر الديوان: ٥١.
(١١) الديوان: ٥١. ٥٢.
(١٢) المُطرب: ١٥٣. وكانَ من باب أولَى أن نُوردَ هذهِ الحكايةَ من كتاب (جذوة المقتبس) ولكن ابن دحية نفسهُ ذكرَ أنها هناكَ مبتُورة مصحَّفة فآثرنا ما أوردهُ هو في المُطرب.
(١٣) ظهر الإسلام: ١٢٣/٣.
(١٤) كنوز الأجداد : ١٠٨.
(١٥) ينظر: الديوان ١٦، ٢٩، ٥٥، ٧٧، ٩٦، ١١١، ١٥٦.
(١٦) الديوان: ١٦٠.
(١٧) الديوان: ١٥٢.
(١٨) الديوان: ٧٧.٧٨.
(١٩) الباطية منَ الزجاج عظيمة تُملأ مِنَ الشراب وتُوضع بينَ الشُّرَّابِ يغْرِفُونَ منها ويشربُونَ. والزير: الدن، وهو أيضًا نوعٌ مِنَ الأوتار، ويتوجهُ المعنَى على الوجهين. (الديوان).
(٢٠) الديوان: ٧٤.
(٢١) بغية الملتمس: ١٣٨. وينظر: جذوة المقتبس ٩٥، الوافي بالوفيات ١١/٨.
(٢٢) الديوان: ٧٠.
(٢٣) الديوان: ٧١.
(٢٤) عصر سيادة قُرطبة: ١٤٧.
(٢٥) الديوان: ٥٠.
(٢٦) الديوان: ٥٢.
(٢٧) أي: جدتُ بنفسي وروحي، يقال: فلان يجود بنفسهِ، أي يسوقُها.
(٢٨) تاريخ الأدب الأندلُسِي، عصر سيادة قرطبة: ١٩٦.
(٢٩) الديوان: ٥٦.
(٣٠) الديوان: ١٧٠.
(٣١) اللقْنُ: سرعةُ الفَهْمِ، يُريدُ أنهُ على الرغمِ من نُذُرِ الشَّيبِ يسترسِلُ في صَبَواتِهِ.
(٣٢) تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس: ٥٠/١.
(٣٣) شذرات الذهب: ٣١٢/٢.
(٣٤) ينظر: تاريخ العلماء والرواة للعلمِ بالأندلس: ١٠٧/١-١٠٨.
(٣٥) ينظر: نفسهُ: ١٨/٢.
(٣٦) المُطرب من أشعارِ أهلِ المغرب: ١٥١.
(٣٧) البداية والنهاية: ١٩٣/١١.
(٣٨) نفسه.

(٣٩) مطمح الأنفس: ٥١.
(٤٠) جذوة المقتبس: ٩٤، بغية الملتمس: ١٣٧.
(٤١) وفيات الأعيان: ١/١١٠.
(٤٢) المقتبس في تاريخ رجال الأندلس: ق٣/٤١.
(٤٣) ذكر ابن خلكان في وفياتهِ ١/١١١ «ولهُ من جملةِ قصيدةٍ طويلةٍ في المنذر بن محمد بن عبدالرحمن بن الحكم ... أحد ملوك الأندلس من بني أمية ...
بالمنذرِ بن محمد .... البيتان . قال الوزير ابن المغربي في كتابه (أدب الخواص) وقد رُوِيَ أنَّ هذهِ القصيدةَ شقَّت عند انتشارِها على أبي تيم المعز لدينِ اللهِ وساءهُ ما تضمَّنَتْهُ مِنَ الكذِبِ والتَّمويهِ إلى أن عارَضَها شاعِرُهُ الإيادي التّو نُسي بقصيدتهِ: رَبعٌ لِزَيْنَبَ قد درَسْ واعتاضَ مِن نُطْقٍ خَرَسْ ».
(٤٤) وفيات الأعيان: ١/١١١.
(٤٥) المقتبس في تاريخ رجال الأندلس: ق٣/٤١.٤٢.
(٤٦) المقتبس في تاريخ رجال الأندلس: ق٣/٤١.٤٢.
(٤٧) الديوان: ١١٣.١١٥.
(٤٨) الفوقُ: موضعُ الوتر منَ السَّهمِ.
(٤٩) الديوان: ٤٣.٤٥.
(٥٠) نقلاً عن المقتبس: ق٣/٣٧.
(٥١) الديوان: ٦٤.
(٥٢) الديوان: ٣٥.٣٧.
(٥٣) نفسه: ١٢٢.
(٥٤) الأدب الأندلسي من الفتحِ إلى سقوط الخلافة: ٢٢٢.
(٥٥) ظهر الإسلام: ٣/١١٩.
(٥٦) ينظر: المقتبس ق٣/١١.
(٥٧) الديوان: ١٣٤.
(٥٨) ينظر: الديوان ٥٥ ومواضع أخر.
(٥٩) الديوان: ٩٣.
(٦٠) أعتاب الكتاب، لابن الأبَّار: ١٧٢.
(٦١) الديوان: ٨٩.
(٦٢) تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس: ١/٥٠، الوافي بالوفيات: ٨/١٠.
(٦٣) جذوة المقتبس: ٩٦، بغية الملتمس: ١٣٨.
(٦٤) مطمح الأنفس: ٥٣.
(٦٥) الديوان: ١٦٥.١٦٦.
(٦٦) ينظر: تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس ١/٥٠، جذوة المقتبس ٩٤، وفيات الأعيان ١/١١٢، البداية والنهاية ١١/١٩٤.
(٦٧) ينظر: جذوة المقتبس ٩٤، بغية الملتمس ١٣٧. وذكر ابن الفرضي في تاريخهِ ١/٥٠ أنَّ وفاتهُ كانت سنة اثنتين وثمانين وثلاث مئة، ويبدو أن ذلك خطأ وتحريف من الناسخ.
(٦٨) ينظر: تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس ١/٥٠، وفيات الأعيان ١/١١٢.
(٦٩) ينظر: تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس ١/٥٠، جذوة المقتبس ٩٤. وجاء في تذكرة الحفاظ ٣/٥٩، وشذرات الذهب ٢/٣١٢ عن اثنتين وثمانين سنة، وهو صحيح؛ لأنَّ ثمانية أشهر وثمانية أيام تُعدُّ سنةً .
(٧٠) جذوة المقتبس: ٣٥٨.
(٧١) تاريخ الأدب الأندلسي، عصر سيادة قرطبة: ١٣٩.
(٧٢) رايات المبرّزين وغايات المميّزين: ٧٧.
(٧٣) إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي، عصر سيادة قرطبة: ١٤٦.
(٧٤) الديوان: ٥٢.
(٧٥) الديوان: ١٢٢.
(٧٦) ظهر الإسلام: ٣/١٢٤.
(٧٧) الأدب الأندلسي من الفتحِ إلى سقوط الخلافة: ٢٣٨.
(٧٨) الديوان: ١٣٢.١٣٣.

(٧٩) الذّحلُ: الثّأرُ .
(٨٠) العقد الفريد: ٥/٣٩٩.
(٨١) ظهر الإسلام: ٣/١٢٤.١٢٥.
(٨٢) تاريخ الفكر الأندلُسي: ٦٢.
(٨٣) حافظ وشوقي: ٢١٤.
(٨٤) نفسه.
(٨٥) الديوان: ١٢٠.
(٨٦) مطمحُ الأنفس ومسرح التَّأنُّس: ٥٥.
(٨٧) جذوة المقتبس: ٩٥.
(٨٨) وفيات الأعيان: ١/١١٠.
(٨٩) شذرات الذهب: ٢/٣١٢.
(٩٠) الديوان، مقدمة المحقق: ٣.
(٩١) الديوان: ٤٣.
(٩٢) ينظر: تاريخ الأدب الأندلسي ٢٣٥.
(٩٣) الديوان: ٥٧.
(٩٤) بلاغة العرب في الأندلس: ٩١.
(٩٥) نفسه: ٩٢.
(٩٦) تاريخ الأدب الأندلسي، عصر سيادة قرطبة: ١١٩.
(٩٧) الديوان: ١٥٩. وينظر: نفح الطيب ٥/٥٩٩.
(٩٨) الديوان: ١٥٧.١٥٨.
(٩٩) ٣/٥٦٥.
(١٠٠) الديوان: ١٤١.
(١٠١) الديوان: ٥٧.٥٨.
(١٠٢) الديوان: ٥٨.٥٩.
(١٠٣) الديوان: ٦٧.
(١٠٤) العقد الفريد:١/١١٢، الديوان: ١٣٤.
(١٠٥) الديوان: ٢٠.
(١٠٦) تنظر هذهِ القصة في المقتبس: ق٣/٤٢، الديوان:١٨.١٩.
(١٠٧) ينظر: جذوة المقتبس ٩١، بغية الملتمس ١٣٤.
(١٠٨) طبقات الأمم، لابن صاعد الأندلسي:٦٤.٦٥. وينظر: الديوان ١٣٨.١٣٩.
(١٠٩) ينظر: جذوة المقتبس ٦٢.
(١١٠) الديوان:١٦، التشبيهات:٨٦.
(١١١) الديوان:٩٦. التشبيهات:٨٤.
(١١٢) الديوان:١٤٨.
(١١٣) الديوان:٩١، ١٣٨.
(١١٤) الديوان:٩١. وفي ص١١٥ «وهي طويلة بعيدةٌ جدًّا، وإحسانُهُ فيها سائرٌ مشهور»
(١١٥) ابن عبد ربه وعقده:١٧٢.
(١١٦) الديوان، المقدمة:١٠.
(١١٧) نفسه.

مصادر البحث ومراجعهُ

- الأدبُ الأندلسي منَ الفتحِ حتى سقُوط غرناطة، للدكتور أحمد هيكل.
- أعتاب الكتاب، لابن الأبار، أبو عبد الله، محمد بن أبي بكر القضاعي، ت ٦٥٨هـ، تح د. صالح الأشتر، ط١، ١٣٨٠هـ ١٩٦١م.
- البداية والنهاية في التاريخ، لابن كثير، عماد الين، إسماعيل ابن عمر القرشي ت٧٧٤هـ، مط السعادة، بلا ت.
- بغيةُ الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، لأحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة الضَّبي، مط روخس ١٨٨٢م.
- بلاغة العرب في الأندلس، لأحمد ضيف، ط١، ١٣٤٢هـ ١٩٢٤م، مصر.
- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، لابن عذارى المراكشي، تح ومراجعة س كولان، أليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت.
- تاريخ الأدب الأندلسي، عصر سيادة قرطبة، للدكتور إحسان عباس، ط١، ١٩٦٠م، وط٢ ١٩٦١، دار الثقافة بيروت.
- تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس، لابن الفرضي، أبو الوليد، عبد الله بن محمد بن يوسف الأزدي ت٤٠٣هـ، طبعة ١٣٧٧هـ ١٩٥٤م.
- تاريخ الفكر الأندلسي، آنخل جنثالث بالنثيا، نقلهُ إلى العربية حسين مؤنس، ط١، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٥م.
- تذكرة الحفاظ، للذهبي، شمس الدين، أبو عبد الله ت٧٤٨هـ، ط٢، ١٣٣٣هـ حيدر آباد الدكن.
- التشبيهات من أشعار أهلِ الأندلس، ابن الكتاني، أبو عبد الله محمد الطيب ت٤٢٠هـ، تح إحسان عباس، دار الثقافة.
- جذوة المقتبس، للحميدي، أبو عبد الله محمد بن فتوح بن عبد الله ت٤٨٨هـ، تح محمد بن تاويت الطنجي، مط السعادة بمصر.
- حافظ وشوقي، للدكتور طه حسين ت١٩٧٤م، ط٣، ١٩٥٥م مصر.
- ديوان ابن عبد ربه، جمع وتحقيق د. محمد رضوان الداية، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م.
- ديوان محمود بن الحسن الوراق، جمع وتحقيق عدنان راغب العبيدي، مط دار البصري، بغداد ١٩٦٩م.
- رايات المبرزين وغايات المميزين، لابن سعيد، علي بن موسى بن عبد الملك المغربي ت٦٨٥هـ، تح د. النعمان عبدالمتعال القاضي، القاهرة ١٣٩٣هـ ١٩٧٣م.

- ❖ شذرات الذهب، لابن العماد الحنبلي ت١٠٨٩هـ، طبعة ١٣٥٠هـ، بيروت.
- ❖ طبقات الأمم، لابن صاعد، أحمد التغلبي الأندلسي ت٤٦٢هـ، نشر الأب لويس شيخُو اليسوعي، مط الكاثوليكية، بيروت ١٩١٢م.
- ❖ ظهر الإسلام، لأحمد أمين، مط لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط٢، ١٩٥٨م.
- ❖ ابن عبد ربه وعقده، للدكتور جبرائيل سليمان جبور، منشورات دار الآفاق الجديدة، ط٢، بيروت ١٩٧٩م.
- ❖ ابن عبد ربه، العقد الفريد، بقلم إفرام البستاني، ج١، مط الكاثوليكية، بيروت.
- ❖ العقد الفريد، لابن عبد ربه الأندلسي، تح محمد سعيد العريان، دار الفكر.
- ❖ في الأدب الأندلسي، د. جودة الركابي، مط الجامعة السورية، دمشق ١٩٥٥م.
- ❖ كنوز الأجداد، محمد كرد علي، مط الترقي، دمشق، ١٣٧٠هـ ١٩٥٠م.
- ❖ المختصر في أخبار البشر، لأبي الفداء، عماد الدين، إسماعيل بن نور الدين ت ٧٣٢هـ، دار الكتاب اللبناني، بيروت.
- ❖ مطمح الأنفس ومسرح التأنس، لابن خاقان، الفتح بن محمد بن عبد الله القيسي، ط١، مط الجوائب، ١٣٠٢هـ.
- ❖ المطرب من أشعار أهل المغرب، لابن دحية، ذي النسبين، أبي الخطاب، عمر بن حسن ت٦٣٣هـ، تح إبراهيم الأبياري وآخَرَينِ، مط الأميرية، القاهرة ١٩٥٤م.
- ❖ المقتبس في تاريخ رجال الأندلس، لابن حيان، أبي مروان ابن خلف، ق٣، نشر الأب ملشورم، أنطونية، ١٩٣٧م.
- ❖ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، للمقري، أحمد بن محمد التلمساني، تح د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت ١٣٨٨هـ ١٩٦٨م.
- ❖ الوافي بالوفيات، للصَّفدي، صلاح الدين بن أيبك، باعتناء محمد يوسف نجم، مطابع دار صادر، ١٣٩١هـ.
- ❖ وفيات الأعيان، لابن خلكان، أبي العباس شمس الدين، أحمد بن محمد بن أبي بكر ت٦٨١هـ، تح د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت.